Mngool.com

من منهل الأدب الخالد

دراسة أدبية لنصوص من القرآن

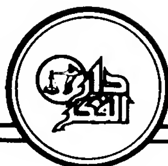
محمد المبارك

دار الفكر
للطباعة والنشر والتوزيع

الطبعة الخامسة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م

منقحة ومزيدة

Email: darelfkr@cyberia.net.lb
E-mail: darlfikr@cyberia.net.lb
Home Page: www.darelfikr.com.lb



حارة حريك - شارع عبد النور - برقيا: فكسي - ص.ب: ١١/٧٠٦١
تلفون: ٥٥٩٩٠٠ - ٥٥٩٩٠١ - ٥٥٩٩٠٢ - ٥٥٩٩٠٣
فاكس: ٠٠٩٦١١٥٥٩٩٠٤



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

لقد تيسر بحمد الله طبع هذه الدراسة القرآنية الأدبية في طبعتها الرابعة مع زيادة بحث عظيم القيمة يتطلع اليه الباحثون في فقه اللغة من جهة والمشتغلون بالجانب الأدبي والبلاغي من الدراسات القرآنية من جهة أخرى ، وهو دراسة (الجملة القرآنية) ودراسة (الآية القرآنية) من وجهتين : وجهة النظم والتركيب النحوي ووجهة التركيب الفني . وهذا الضرب من البحث يعتبر من أحدث الدراسات اللغوية في اللغات الحية ، وقد سبق لعلماء البلاغة الاشتغال به من بعض نواحيه وبطريقة مجزأة في علم المعاني .

وأرجو من الله تعالى أن يتيح لي الفرصة لتوسيع الكتاب ببعض البحوث العامة المتعلقة بالكتاب الكريم ، كبحث المكي والمدني من حيث الموضوع والأسلوب ، وهو بحث سار فيه

كثير من الباحثين في طريق خاطىء وكدراسة بعض السور والآيات ليتم بها دراسة نماذج متنوعة للنصوص القرآنية .

مكة المكرمة / ٢٨ ذو القعدة ١٣٩٢

٢ كانون الثاني(يناير) ١٩٧٣

محمد المبارك

رئيس قسم الشريعة والدراسات الاسلامية

فى كلية الشريعة بمكة المكرمة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذي جعل البيان العربي والإعجاز الأدبي آخر آيات النبوات وخاتمة معجزات الرسل والرسالات . وسلام الله وصلاته وتحياته على من تنزلت عليه آيات الكتاب المستبين بلسان عربي مبين ، فكان في معانيه وتعاليمه هداية للناس ، وفي لغته وأسلوبه كنزاً للعربية يحفظها على مر الزمن ، ويمدها على الدوام بماء الحياة ، تأخذ من رائع كلمه ودقيق ألفاظه ، ومن محكم تراكيبه ومرصع جمله وآياته ،ومن صادق فنه وأسلوبه الحي ، مادة متجددة في كل عصر تستقبل بها الزمن وحاجاته، في أداء المعاني وجمال التعبير .

وبعد فقد عنيت منذ زمن طويل بالتفسير الأدبي للقرآن الكريم حينما كنت أدرس تاريخ الأدب العربي وأعنى بشرح نصوصه ، وسلكت في ذلك سبيلا اتخذتها لنفسي بعد درس

وتجربة ، وبعد اطلاع على الطريقة التي يسلكها دارسو الأدب في بعض اللغات الأجنبية في تحليل نصوص أدبهم ، مع مراعاة للأدب العربي من خصائص تميزه من غيره .

وكانت كلية الآداب في جامعة دمشق منذ إنشائها ١٩٤٦ وضعت في منهجها لنيل درجة الإجازة في آداب اللغة العربية مادة عنوانها (دراسة أدبية لنصوص من القرآن والحديث) وكانت بذلك سباقة إلى وضع هذا النوع من الدراسة في إطار الدراسات الأدبية على المستوى الجامعي .

وقد كلفت في سنة ١٩٥٣ تدريس النصوص القرآنية من هذه المادة وقمت بها خلال عدة سنوات ثم انقطعت عنها وتولى تدريسها صديقنا الأستاذ الدكتور صبحي الصالح (وهو حالياً أستاذ في الجامعة اللبنانية) ثم عهد إلي مرة أخرى بتدريسها في هذا العام ١٩٦٤ .

وكنت قد نشرت في سنة ١٩٦٠ رسالة اشتملت على بعض الدراسات الأدبية المتعلقة بالقرآن بعنوان (من منهل الأدب الخالد) ضمنتها تفسير سورة العاديات تفسيراً أدبياً ، ودراسة الناحية القصصية من سورة يوسف ، وبحثاً في عناصر الفكر والفن في الكتاب الكريم ، وآخر في عربية أسلوبه وإنسانية رسالته .

وقد وجدت الآن أن ثمة حاجة لنشر بعض نماذج من التفسير الأدبي لبعض السور والنصوص القرآنية ، لما في ذلك من

فائدة لطلاب الآداب ولمن يحب الاطلاع على هذا اللون من الدراسات الأدبية من المثقفين والخاصة، فرأيت أن أعيد طبع هذه الرسالة بعد أن نفدت نسخها وأن أضيف إليها بعض ما كنت أعددته لطلاب الآداب في هذا الموضوع ، فأضفت إليها تفسير سورة الحاقة وبعض آيات من سورة النحل .

وطريقي في التفسير الأدبي لهذه النصوص القرآنية تقوم على تلخيص الفكرة العامة للسورة أو النص ، ثم بسط ما تضمنته من أفكار وكشف ما بين هذه الأفكار من صلة وربطها بما تضمنه القرآن من مفاهيم وأفكار . وأعمد في ذلك إلى عرض معاني الآيات والأفكار التي تضمنتها عرضاً مباشراً هو حصيلة ما انتهى إليه رأيي في معانيها دون أن أنقل مختلف أقوال المفسرين لئلا أثقل بذلك على طلاب الآداب مع إمكان دلالتهم على مراجع التفسير ليرجعوا إليها إذا أرادوا . ثم أعرض الطريقة الأدبية أو فن التعبير عن تلك المعاني والأفكار، كالوصف والقصص والمثل المضروب والعرض المباشر، مع بيان خصائص هذا الفن وانسجامه مع الموضوع في النص الذي هو موضوع الدراسة .

ثم أنتقل بعد ذلك إلى دراسة الآيات من حيث تراكيبها وجملها ومفرداتها ، وما لهذه التراكيب والألفاظ من خصائص أدبية بارزة سواء من جهة أداء المعنى وحسن التعبير عنه وقوته ودقته ، أم من جهة اللفظ وجرسه ونغمته ، وما لذلك كله

من صلة بالفكرة المعروضة والفن الأدبي الذي عرضت الفكرة عن طريقه .

إن التفسير الأدبي يشتمل على هذه الجوانب كلها : فكرة النص وهدفه والجو الذي يثيره ، وأسلوب التعبير وفنه ، والأسلوب اللفظي . على أن يربط بين هذه الجوانب كلها وتجمل في إطار واحد يجمعها . وقد عنيت في كل جانب من هذه الجوانب بالنظرة الشاملة التي تنظم الآيات كلها دون الاكتفاء بدراسة الآيات منفصلة ، سواء أكان ذلك في استنتاج الفكرة أم في استخراج الخصائص الفنية وسمات الأسلوب . فقد تتفرق بعض هذه الخصائص والسمات الفكرية والفنية في مختلف الآيات حتى تكون خفية في كل منها ولا تظهر وتبرز إلا إذا نظر إلى الآيات في مجموعها وأضيفت نتائج دراستها وانطباعات كل منها .

والذين كتبوا في الأدب القرآني في هذا العصر تنوعت أساليبهم ومناهجهم تنوعاً كبيراً وقد كان للأستاذ سيد قطب فضل كبير في السبق إلى الكتابة والنشر في هذه الموضوعات على أسلوب حديث [1] فقد أخرج للناس في سنة ١٩٤٤ كتابه

---

(١) لا شك أن لمصطفى صادق الرافعي فضلاً عظيماً وموقعاً خاصاً بما قدمه للناس في كتابه اعجاز القرآن بعد قرون طويلة غاضت فيها ينابيع البلاغة العربية وبعد عهد الناس فيه بمثل دلائل الاعجاز واسرار البلاغة للجرجاني وعكفوا على كتب غلبت عليها الصنعة والعجمة فلم يتذوقوا بلاغة =

(التصوير الفني في القرآن) ثم (مشاهد القيامة) بعد ذلك بعامين ثم أخرج تفسيره الادبي (في ظلال القرآن) سنة ١٩٥٢ في ثلاثين جزءاً صغيراً وقد قال في مقدمته : « كل ما حاولته ألا أغرق نفسي في بحوث لغوية أو كلامية أو فقهية تحجب القرآن عن روحي وتحجب روحي عن القرآن. وما استطردت إلى غير ما يوحيه النص القرآني ذاته من خاطرة روحية أو اجتماعية أو إنسانية ... وكذلك حاولت أن أعبر عما خالج نفسي من احساس بالجمال الفني العجيب في هذا الكتاب المعجز ومن شعور بالتناسق في التعبير والتصوير » . فكانت مؤلفات الأديب الكبير الأستاذ سيد قطب ثروة أدبية كبيرة ومنهلا ينهل منه رواد الأدب والراغبون في تذوق أدب القرآن وأسلوبه وإدراك أسرار إعجازه .

ثم كتب الأستاذ الدكتور أحمد أحمد بدوي الأستاذ في كلية دار العلوم في القاهرة في عام ١٩٥٠ كتابه (من بلاغة القرآن) فأغنى طلاب الأدب عن الرجوع الى تلك المصادر الثمينة

= الكتاب المبين فكان كتابه عودة بل قفزة الى عصور البلاغة العربية الناصعة في وقت احتدمت فيه معركة القرآن والاسلام والعربية مع خصومها من أتباع الغرب ولكن سيد قطب كتب في عصر ظهرت فيه للنقد الأدبي آراء جديدة وذهبوا فيه مذاهب مستحدثة فسلك مسلكاً آخر يناسب هذه المرحلة الجديدة وكذلك الذين كتبوا بعد الرافعي في الدراسات القرآنية.

الخصبة التي خلفها السلف في هذا الميدان ، كالاتقان للسيوطي، ودلائل الإعجاز وأسرار البلاغة للجرجاني ، وإعجاز القرآن للباقلاني ، وغيرها . وقد بذل جهداً يشكر في جمع آرائهم وخواطرهم وعرضها عرضاً مصنفاً مرتبــاً مضيفاً اليها بعض الأبحاث الجديدة . واستخرج من الكتاب الكريم عدداً من الموضوعات فبيّن كيف عرضت في القرآن في مختلف سوره وتحدث عن خصائصها الفكرية والأدبية فجاء كتابه مرجعاً غنياً خصباً مليئاً بفوائده .

وأخرجت الدكتورة عائشة عبد الرحمن بعــد أن تولت تدريس النصوص القرآنية في إطار الدراسة الأدبية الخالصة في جامعة عين شمس سنين طويلة مؤلفها النفيس (التفسير البياني للقرآن الكريم) وذلك في عام ١٣٨١ هـ ١٩٦٢ م وهو نتيجة « فكرة اختمرت في ذهن المؤلفة في عقلها وشعورها ، وهي إبراز الجانب الأدبي من القرآن الكريم، ووضعه في الذروة من دراساتنا الأدبية ، والخروج بــه عن إطار دراسة التفسير باعتبارها دراسة جانبية تعين دارس الأدب ، والسير في منهج تحليلي لتذوق العربية وأدبهــا الأصلي من أعذب منبع من منابعهــا من كتاب العربية الأكبر ومعجزتها البيانية الخالدة ومثلها العالي الذي يجب أن يتصل به كل ذي عروبة أراد أن يكسب ذوقها ويدرك حسها ومزاجها ويستشف أسرارها في التعبير والأداء مسلماً كان أو غير مسلم » وقد ضمنته تفسير

سبع من قصار السور وسارت فيه على نهج خاص ، تتبعت فيه المعنى واللفظ معاً وأبرزت – مستعينة – بهما معاً أسرار البلاغة وجوانب الإعجاز ، وعرضت فيه أقوال عدد من أئمة التفسير القدامى والمحدثين ، واختارت فيه ما رأته أقرب الى الذوق العربي في الفهم وأظهر لبلاغة القرآن ، متتبعة الآيات آية آية ، في عرض هادىء طويل النفس يسير نحو الهدف المقصود في تسلسل منطقي وتعبير بليغ .

تلك هي أبرز المؤلفات التي كتبت في الأدب القرآني ، أخرجها أدباء ونقاد وأساتذة كبار ، وكان لكل منهم طريقته وأسلوبه . هذا عدا ما أخرجه مؤلفون آخرون مما هو أقرب الى الدراسات الفكرية أو التاريخية مما لم نشر إليه لخروجه عن موضوعنا .

وإني لأرجو بتقديمي هذا الكتاب الصغير أن أسهم في هذا النوع من الدراسات المحببة الى نفسي، آملاً أن أضيف إليه في أقرب فرصة ما تجمع لدي منذ سنين من تفسير سور وآيات أخرى مما لم أستطع تنقيحه في هذه الفرصة الضيقة لتقديمه للطبع ، والناشر والطلاب يستعجلون إخراج الكتاب . واسأل الله أن يوفقني لاستجلاء أسرار كتابه العظيم والأخذ بما فيه من هداية الفكر وتهذيب النفس وإيقاظ المشاعر وتذوق الجمال الذي أودعه الله في صور البيان ونغمات الحروف

وفي ميادين الطبيعة وآفاق الروح ، وله الشكر والحمد على هدايته وتوفيقه .

دمشق

٨ ذي القعدة ١٣٨٣ محمد المبارك
٢١ آذار ١٩٦٤ عضو المجمع العلمي العربي بدمشق

بسم الله الرحمن الرحيم

(١)

وَٱلعَادِيَاتِ ضَبْحاً . فَالْمُورِيَاتِ قَدْحاً . فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحاً . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعاً . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعاً

(٢) إِنَّ الإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ وَإِنَّهُ لِحُبِّ ٱلْخَيْرِ لَشَدِيدٌ

(٣) أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي ٱلْقُبُورِ . وَحُصِّلَ مَا فِي الصُّدُورِ . إِنَّ رَبَّهُمْ بِهِمْ يَوْمَئِذٍ لَخَبِيرٌ

المعنى الاجمالي للسورة :

والخيلِ التي تعدو عدواً يسمع منها صوت أنفاسها فتوري

النار بحوافرها إذ تغير في الصباح فتثير الغبار فتتوسط جماعة العــــدو .

إن الانسان كفور بنعمة ربه وعالم بذلك من نفسه وهو شديد الحب للمال ، أفلا يعلم ويتصور كيف تكون حاله حين تثار القبور ويخرج من فيها وتجمع حصائل الأعمال من الصدور ، إن ربهم يومئذ عليم بأعمالهم وسيحاسبهم عليها .

أقسام السورة :

يمكن أن نقسم السورة بحسب مضمونها إلى أقسام ثلاثـة وخاتمة أو نتيجة .

أما القسم الأول : فهو مشهد من مشاهد صراع الانسان في هذه الحياة للتسلط وكسب المال ، مشهد فرسان يغيرون على جماعة أخرى ليأخذوا مالها ويتسلطوا عليها . ولئن جاء هذا الصراع هنا في صورة غزوة من الغزوات التي عرفها العرب وألفوا أمثالهــا ، فإن هذه الصورة ترمز إلى جميع أنواع العدوان في ميادين الصراع بين البشر الذي يكون الاعتداء طريقه والتسلط والسلب غايته .

واما القسم الثاني: فهو تحليل سريع موجز لنفسية الإنسان. إنه شديد الحب للمـال كفور بنعمة الله وهو يعرف ذلك من نفسه . وإن حبه هذا الشديد للمال مع الغفلة عن تذكر المنعم وشكره هو الذي يدفعه الى الاعتداء على الآخرين ، ولو كان

ذاكراً لنعمة الله عليه لصده ذلك عن الاعتداء على عباده .

والقسم الثالث : إهابة وتنبيه وتذكرة بالمصير بعد الفناء، إذ يُبعث البشر من قبورهم وتجمع حصائل الأعمال من الصدور التي هي كناية عن النوايا والدوافع التي بها تقاس الاعمال إن كانت خيراً أو شراً .

وتختتم الأقسام الثلاثة بهذه الآيــة التي هي آخر المراحل « إن ربهم بهم يومئذ لخبير » . فمن صراع في هذه الحياة التي يعيش فيها الإنسان مدفوعاً بدافع من حب المال وفي غفلة عن تذكر الخالق المنعم، إلى موت يعقبه بعث وحساب على الاعمال والنيات حيث يكون المحاسِب هو الله الخبير بأحوال العالم ، وبأعمالهم ، المطلع على نواياهم .

إن هــذا النص كما ترى غني بمشاهده وأفكاره بالنسبة الى قصره وإيجازه ، ولكن الفكرة الأساسية التي يبدو أنها هي المقصودة من السورة هي الفكرة المتجلية في الآيــة الأخيرة والتي نستطيع أن نلخصها في قولنا إنهــا (مسؤولية الانسان العظمى أمام الخالق بعد هذه الحياة) وكل ما تقدمها منمشاهد وأفكار كان وسيلة للوصول إليها وتثبيتها في الفكر والقلب

قيمة الأفكار الواردة في النص :

١ ـ لا شك أن الانتقــال من المسؤولية القبلية المحدودة الأثر في حياة العرب قبل الإسلام الى هذا النوع من المسؤولية

الانسانيــة العميقة في النفس البعيدة الأفق ذات المقياس النفسي الداخلي من جهة ، والانساني العام من جهة أخرى ، انتقــال عظيم جـــداً . وإن المقارنة بين مقاييس المجتمع الجاهلي في المسؤولية ، وهذه المقاييس المتجلية هنا ترينا تقدمــاً عظيماً جداً في ميدان التفكير الأخلاقي .

٢ ـ ولا يقتصر الأمر على هذه القيمة النسبية بين الحالين والمجتمعين فإننا لو نظرنا الى فكرة هذا النص القرآني بوجه عــام وعبر القرون لوجدنا أن هذه الفكرة ، أعني مسؤولية الانسان الكبرى بوجه عام،مسؤوليته فيما وراء المجتمعوالحياة، فكرة عظيمة تستحق الخلود وإن كل ما في النص من مشاهد الصراع بين البشر والاندفاع اليه بدافع من حب المال وكفران النعمة لا يزال كما هو في الحيــاة الانسانية . وإن الحضارة لم تصل الى هذه الدرجة من التفكير في الانسان بوجه عام مجرداً عن قبيلتــه وقومه وعن سائر الملابسات الخاصة إلا منذ عهد قريب . وقد تضمن هــذا النص القرآني أفكاراً عن الانسان ونفسيته ومسؤوليته الأساسية لم تبلغ مرحلة بحثهــا إلا قليل من الحضارات الراقية وبعد تطورات كبيرة في الفكرو المجتمع، فضلاً عن أن يظهر ذلك في مجتمع لم يتجاوز بعد مرحلة النظام القبلي ، وهذه ناحية بارزة من نواحي الإعجاز .

٣ ـ وإن فكرة مسؤولية الانسان العظمى هذه من الأفكار ،

بل العقائد الأساسية التي تضمنها القرآن وكررها في أشكال وصور متنوعة كثيرة وجعلها ركيزة أساسية في نظامه الأخلاقي والتشريعي وجزءاً من فلسفة الحياة التي جاء بها .

خصائص النص الفكرية :

١ — تبدو في النص وحدة موضوعية واضحة تدور حول فكرة المسؤولية .

٢ — ولذلك كان بين أجزاء النص ارتباط وتسلسل فمن مشهد الغزو الى تحليل العوامل النفسية الدافعة الى النهاية والمصير فالحساب والمسؤولية .

٣ — ويعتمد النص على العنصر النفسي سواء في تحليل نفسية الانسان أو في تسجيل الاعمال (وحصل ما في الصدور) واعتبار النيات في تحديد المسؤولية .

فن العرض أو الطريقة الأدبية :

إذا كانت الفكرة الأساسية هي أن الانسان مسؤول بعد هذه الحياة عن أعماله ودوافعه فكيف عرضت هذه الفكرة وهل كان في طريقة عرضها فن خاص ؟

١ — لقد وضعنا النص رأساً أمام مشهد واقعي حي من مشاهد الحياة ينبض بالحركة والحياة ، إذ تعدو أمام بصرنا كوكبة من الفرسان ، نحسّ بحرارة أنفاس خيلها ، ونسمع

حفيفها ، ونبصر الشرر المتطاير من حوافرها وما تثيره من الغبار حولها ، حتى تصل في وقت الصبح الى الجماعة التي يريد مباغتتها .

لقد اعتمد النص في هذا القسم الأول على الوصف الذي يكاد يكون على إيجازه قصة أو مشهداً من قصة ، وقد تضمن هذا الوصف عناصره الأساسية من تصوير الحركة (العاديات ، المغيرات ، أثرن ، وسطن) الى تصوير الأشكال والألوان (الموريات قدحاً ، النقع ، توسط الجمع) الى سماع الأصوات (ضبحا) هذا مع انتقاء النقط البارزة والخطوط المشخصة للمشهد (العدو ، الشرر ، الغبار) وتحديد الزمان (الصبح) .

لقد كان افتتاح السورة بهذا المشهد مفاجأة مثيرة للخيال ولا سيما بالنسبة للعرب الذين تثيرهم صورة الغزو بل خبره وحكايته ، وكان عرض هذا المشهد نقطة انطلاق للتأمل والتفكير ، وكان في الوقت نفسه صورة رمزية تدل على اعتداء الإنسان على الإنسان أورد مورد القسم وكثيراً ما يأتي القسم في القرآن للإيقاظ والتنبيه وإثارة النفس وإعدادها لما يأتي بعده من المعاني .

٢ — أما طريقة القسم الثاني من النص فقد كانت التحليل النفسي فقد انتقلنا من مشهد واقعي من مشاهد الحياة إلى التأمل فى نفسية الإنسان ، ومن الصور الحية النابضة إلى التأمل الباطني والتفكير النفسي ، ومن الصور الحسية إلى

الحقائق المجردة النفسية ، وكان عرض الافكار في هذا القسم عرضاً مباشراً مجرداً خالياً من التصوير الحسي أو الوصف المادي .

٣ – وقد عاد النص في القسم الثالث إلى طريقة الوصف والتصوير فإذا بنـــا ننتقل من ذلك التأمل النفسي ، ومن مشاهد الحياة اليومية إلى نهاية الحياة وإلى مـا بعد الموت في صورة حسية قوية تبعث الروع في أشد إيجاز وأقوى تعبير (أفلا يَعلم إذا بُعثر ما في القبور) تقترن بها صورة نفسية ترمز إلى جمع الأعمال وتشير إلى اعتبار النية فيها (وحصل ما في الصدور) . فكأن هذا القسم في طريقته حاكى القسم الأول في آيته الاولى ، والثاني في آيته الثانية ، فجمع التصوير الحسي الرائع والتحليل النفسي في آيتين تصفان حادثة واحدة.

٤ – أمـا الخاتمة فقد جاءت على طريقة الاحكام المجردة بعد أن ُهيئت النفس بتلك الصور الحسية المثيرة للخيـــال ، والصور النفسية الباعثـة على التأمل لتلقي هذا الحكم خالصاً مجرداً .

وهكذا جمعت هذه السورة بين طريقة التصوير والوصف، وطريقة التحليـل والعرض المباشر للأفكار مع إيجاز وسرعة انتقال ، هذا عدا ما في القسم الاول من فن عجيب في قطع سلسلة المشهد ليتمّها القارىء بخياله ، إذ تقف قصة الغارة عند التقاء الجمعين . ولك أن تتصور أيها القارىء ما تتصور من

جرائم النهب والسلب والقتل والاعتداء ، تلك الاعمال التي تستدعي الحكم الوارد في القسم الثاني على الإنسان الكفور الجاحد .

صياغة الآيات ، أو التراكيب والجمل :

ولو ألقينا نظرة على الآيات وترتيبها وتركيبها لوجدناها متناسبة مع الافكار وخصائصها ، ولوجدنا تنوعها مقابلا لتنوع الافكار .

إننا نجد في تركيب جمل الآيات الأقسام التالية التي تقابل الأقسام الفكرية السابقة .

١ - آيات قصيرة تتألف كل واحدة منها من كلمتين أولاهما اسم فاعل بمعنى الفعل ، أو فعل (والعاديات ضبحا ، فأثرن .. فوسطن به جمعا) وكلها أفعال تدل على حركات أو أعمال حسية ؛ وثانيتها أحد المفاعيل . وتخلو هذه الجمل أو الآيات من الزوائد ، وتتوالى سراعاً كما تتوالى حركات الخيل في عدوها،وهي كلها جمل فعلية أو بحكم الفعلية تصور الحركات والحوادث .

٢ - أما آيات القسم الثاني فهي تتألف من جمل اسمية تستعمل عادة للتعبير عن الحقائق العامة مصدرة كلها بـ (إن) المستعملة لتأكيد هذه الأحكام مع اللام المقرونة بالخبر

٣ - وتعود الآيات في القسم الثالث إلى الجمل الفعلية

لتصوير مشهد خاطف ليوم القيامة ، ولكنها تأتي هنا مصدرة بالاستفهام الاستنكاري المثير ، (أفلا يعلم) (إذا بعثر) ما في القبور ، و (حصل) ما في الصدور .

ويلفت النظر في هاتين الآيتين استعمال الأفعـــال المبنية للمجهول واستعمال (ما) الموصولة المشعرة بعدم التحديد ، وفي ذلك فسح المجال للخيال ليتصور ما شاء أن يتصور .

٤ ــ وتعود الخاتمة مرة أخرى ، وهي حقيقة كبرى تمثل الفكرة الأساسية في النص ، إلى الجملة الاسمية المؤكدة بإن واللام على طريقة القسم الثاني .

لقد كانت الآيات إجمالاً قصيرة في جميع أجزاء السورة ، متناسبة في قصرها مع سرعـة الانتقال في تصوير الحركات ، أو مع إيجـــاز الأفكار في التحليل النفسي ، ومقتصرة على العناصر الأساسية للجملة ، خاليـة من الزوائد خلو الأفكار والمشاهد من التفصيلات،متناسبة في تنوعها وانتقالاتها مع تنوع الموضوع،من فعلية غير مؤكدة إلىاسمية مؤكدة الىاستفهامية.

الألفاظ :

ورد في النص نوعان من الألفاظ : أحدهما لتصوير المعاني الحسية ، وجاءت الألفاظ التي من هذا النوع واضحة دقيقـة التعبير (ضَبْح ، موريات ، مغيرات ، أثرن ، نقع ، وسطن) أو مصورة (بعثر) .

وثانيهما للتعبير عن المعاني المجردة ، وهي معان عامة (كنود، حب الخير ، شهيد ، خبير) .

الموسيقى في السورة :

يشعر المرتل لهذه الآيات أن لها طابعاً موسيقياً واضحاً ، وإذا قرأها قراءة فنية – وذلك هو الترتيل – لاحظ انقسامها إلى عدة نغمات متناسبة مع أقسام النص من الوجهة الفكرية والنحوية .

فالقسم الأول يتألف من خمس فقرات موسيقية ذات نغمة واحدة تقل فيها المدود ، وكل فقرة منها تتألف من كلمتين : أولاهما تحتوي على بعض المدود الطويلة . وثانيتهما ، وهي فاصلة الآية ، كلمة ثلاثية لا مد إلا في آخرها (ضبحا ، قدحا ، صبحا، نقعا، جمعا) وهذه الفقرات تمثل بقلة مدودها وتوالي حروفها المتحركة حركة الخيل في عدوها ووقع حوافرها ثم ارتفاعها .

أما القسم الثاني من السورة فهو أطول نفساً وأكثر مدوداً، وكأنه يشير بمدوده الطويلة إلى التأمل الطويل والهدوء النفسي. وتختلف كلمة الفاصلة في هذا القسم اختلافاً كبيراً في جرسها الموسيقي عن فاصلة القسم الأول (كنود ، شهيد ، شديد) .

والقسم الثالث يجمع بين المدود الطويلة في بعض أجزائه (أفلا يعلم إذا) وتوالي الحركات في كلمات أخرى (بعثر) ، كما

أن فاصلته تختلف عن القسمين السابقين في نبرتها وقوة جرسها (قبور ، صدور) .

ويعود القسم الأخير في نغمة هادئة ناشئة عن المدود والميم الساكنة والتنوين، إلى فاصلة تأخذ الياء من القسم الثاني والراء من الثالث .

ويلاحظ أن لبعض ألفاظ السورة جرساً موسيقياً واضحاً مناسباً لمعناها مثل (قَدْحا ونَقْعا) المناسبة لوقع حوافر الخيل و (بعثر) المناسبة لانتشار أجساد الموتى بعد خروجها من الأرض ، ومثل (حصّل) الدالة بصادها المشددة على شدة التقصي والجمع .

فموسيقى النص في جملتها وتفصيلها ، أي في نغمة الجمل وجرس الالفاظ وفواصل الآيات ، مناسبة للمشهد والأفكار ومقابلة لها ، وتتنوع بتنوعها وتنسجم انسجامها .

والخلاصة :

إن هذه السورة تضمنت موضوعاً أساسياً هو مسؤولية الإنسان العظمى ، وأفكاراً أخرى أحاطت به من وجود الله وحدوث البعث ، ونفسية الإنسان وصراعه في هذه الحياة . وكلها أفكار أساسية في الحياة ، تسمو بالقارىء إلى مستوى عال من التفكير والشعور .

وكان عرضها عرضاً منطقياً جميلا قوياً ، قوامه مشاهد من

الحياة الواقعية المحسوسة ، والحياة الأخرى المغيّبة ، والانسان في صورته النفسية معروض بينهما . وكان هذا العرض المستند إلى التصوير الحسي والتحليل النفسي قويـاً سريعاً موجزاً ، اشترك فيه الفكر والخيال والحس ، وتعاونت الألفـــاظ والتراكيب، فجاء نثراً فنياً كاملا ، ليعبر عن أخطر مسألة في حياة الإنسان وهي (مسألة المصير والمسؤولية) .

سورة الحاقة

بسم الله الرحمن الرحيم

ٱلحَاقَّةُ مَا ٱلحَاقَّةُ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا ٱلحَاقَّةُ .
كَذَّبَتْ ثَمُودُ وَعَادٌ بِالْقَارِعَةِ فأما ثمودُ فَأُهْلِكُوا
بِالطَّاغِيَة . وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ
سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى
ٱلقَوْمَ فِيهَا صَرْعَى كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ . فَهَل
تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ . وَجَاءَ فِرْعَوْنُ وَمَنْ قَبْلَهُ
وَٱلْمُؤْتَفِكَاتُ بِالْخَاطِئَةِ.. فَعَصَوْا رَسُولَ رَبِّهِمْ فَأَخَذَهُمْ
أَخْذَةً رَابِيَةً إِنَّا لَمَّا طَغَى ٱلْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي ٱلْجَارِيَةِ .

لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ .

فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ . وَحُمِلَتِ الْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً . فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ . وَانْشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ . وَٱلْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ . يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ .

فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَؤُوا كِتَابِيَهْ . إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ . فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ . فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ . قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ .

وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ . وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ . يَا لَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ . مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ . هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ . خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ . ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا

سَبعُون ذِراعاً فَاسْلُكُوهُ . إنَّهُ كانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللهِ
ٱلعَظِيمِ وَلَا يَحُضُّ عَلَى طَعَامِ ٱلمِسكِينِ . فَلَيْسَ لَهُ
ٱليَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ . وَلَا طَعَامٌ إلَّا مِنْ غِسْلِينِ . لَا
يَأكُلُهُ إلا ٱلخَاطِئُونَ .

فَلا أُقسِمُ بِمَا تُبْصِرونَ . وَمَا لا تُبْصِرُونَ . إنَهُ
لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ . قَليلاً مَا
تُؤْمِنُونَ . وَلا بِقَوْلِ كاهِنٍ قَليلاً مَا تَذَكَّرُونَ . تَنْزِيلٌ
مِنْ رَبِّ ٱلعَالَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقاوِيلِ .
لَأَخذْنَا مِنْهُ بِاليَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلوَتِينَ . فَمَا
مِنْكُمْ مِنْ أَحدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ . وَإِنَّهُ لَتَذْكِرَةٌ
لِلمُتَّقِينَ . وَإِنَّا لَنَعْلَمُ أَنَّ مِنْكُمْ مُكَذِّبِينَ . وَإِنَّهُ
لَحَسْرَةٌ عَلَى ٱلكَافِرِينَ . وَإِنَّهُ لَحَقُّ ٱليَقِينِ . فَسَبِّحْ
بِاسْمِ رَبِّكَ ٱلعَظِيمِ .

(١)

تفسير الألفاظ

ويحسن بنا أن نشرح بعض ألفاظ السورة لإيضاح معناها أو لبيان ناحية بلاغية فيها .

الحاقة : من حق الأمر يحـــق إذا وجب ووقع وثبت . وهي على صيغة اسم الفاعل مع إضافة التاء التي تنقل اللفظ من الوصفية إلى الاسمية واستعملت هنا بمعنى يوم القيامة للدلالة على تحقيق وقوعه .

القارعة : من القرع وقـــد استعمل العرب قوارع الدهر وهي هنا بمعنى القيامة أيضاً لأنها تقرع الناس بحدوثها .

أهلكوا بالطاغية : والطغيان تجاوز الحد والطاغية هنا إما مصدر على صيغة اسم الفاعل وإمـــا صفة لموصوف محذوف تقديره المصيبة الطاغية .

ريح صرصر : شديدة الصوت لها صرصرة وقيل الباردة من الصِرّ وهو البرد .

عاتية : من العتو وهو النبوّ عن الطاعة ووصف الريح بها من المجاز .

حسوما : أي حاسمة لأثرهم أو لخبرهم جمع حاسم أو مصدر كالشكُور والكفور وقيل معناها المتتابعة .

اعجاز نخل خاوية : عَجُز الشيء مؤخره وأعجاز النخل أصولها وأسافل جذوعها . وخاوية خالية .

باقية : هي مصدر على وزن اسم الفاعل بمعنى بقاء أو صفة لموصوف محذوف تقديره نفس أو جماعة .

المؤتفكات : أي المنقلبات ويراد بها قرى قوم لوط التي انقلبت بأهلها . مشتقة من الإفك وهو القلب ومنه قيل للكذب والبهتان إفك لأنه قلب للحقيقة .

الخاطئة : الذنب العظيم .

رابية : شديدة مرتفعة .

الجارية : السفينة ومن ذلك قوله تعالى (وله الجواري المنشآت في البحر كالأعلام) .

الصُور : البوق ينفخ به .

دكتا دكة واحدة : الدك الدق والهدم .

ارجائها : أطرافها .

ثمانية : أي ثمانية من الملائكة .

أوتي كتابه بيمينه : تكرر ذكر الكتاب في القرآن بمعنى سجل أعمال الإنسان التي يحاسب عليها يوم الجزاء . « وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونُخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً » (الإسراء) « فمن أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حساباً يسيراً » (الانشقاق) « هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون » (الأحقاف). وأخذ الكتاب باليمين كناية تدل على أنه من أهل الخير المستحقين للجنة .

هاؤم : اسم فعل بمعنى خذوا .

ظننت أني ملاق حسابيه : الظن هنا بمعنى الاعتقاد .

عيشة راضية : تعبير جميل طالما شغل بشرحه علماء البلاغة فقالوا هو من قبيل استعمال اسم الفاعل مكان اسم المفعول وقالوا وصفت العيشة نفسها بالرضى بدلاً من وصف صاحبها وهو أبلغ من التأويل السابق .

القطوف:جمع قِطف وهي الثمار المقطوفة أو القابلة للقطف.

هلك عني سلطانيه : السلطان بمعنى التمكن والقدرة وبمعنى الحجة وكلا المعنيين يمكن أن تحمل عليه الآية . والهاء في آخرها وفي أمثالها من الكلمات هي هاء السكت .

غلّوه : أي قيدوه بالأغلال .

الجحيم صلّوه : صلاّه وأصلاه وصلاه أحرقه وألقــاه في النار .

ذرعها سبعون ذِراعاً : قـــد يرد العدد في القرآن وفي كلام العرب دون أن يراد منه مفهومه الدقيق ، وإنمــا يراد مجرد الكثرة كقوله تعالى «إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم» وأما ما ورد من ذلك في آيات التشريـع كآيات الطلاق والعدة وتقسيم الميراث فمعانيها محكمـــة ومفهومها اللفظي هو المقصود .

الحميم : القريب .

غسلين : كالغسالة ما يغسل من الثوب ونحوه .

تقوّل علينا : ادعى القول ونسبه إلينا .

تنزيل من رب العالمين : النزول والتنزيل استعملت كثيراً بحق القرآن وسوره وآياته وذلك لما يوصف الله به من العلو . « نزل به الروح الأمين » «نزّل عليك الكتاب» « نزل أحسن الحديث » « إنا نحن نزلنا الذكر » « وننزل من القرآن ما هو شفاء » « إنا أنزلناه قرآناً عربياً » .

ربّ : من التربيه ورب الشيء صاحبه ومربيه ومنـــه « اذكرني عند ربك » أي عند سيدك وصـــاحبك . وأكثر ما وردت في القرآن مضافة (رب السموات والأرض – رب العرش العظيم – وما ربك بظلام للعبيد) ووردت غير مضافة

(بلدة طيبة ورب غفور) ولم ترد معرفة بأل . ربّ العالمين من التعابير العامة الجامعة الدالة على أرقى مفهوم للإله وقريب منه (رب السموات والأرض) و (رب كل شيء) .

قليلا ما تؤمنون : قد يستعمل القليل ويراد منه النفي كقولهم فلان قليل الأدب أو المعرفة أي لا أدب له ولا معرفة عنده .

الأقاويل : جمع أقوال وهي جمع قول وكأن جمع الجمع أضعفها فجعلها كالأساطير وزنـا ومعنى وكأن الحق الواحد تشعب وتفرق إلى أقوال كثيرة باطلة .

لاخذنا منه باليمين : أي لأخذناه بيمينه .

الوتين : نياط القلب والعرق الذي يغذيه بالدم .

تذكرة للمتقين : التذكرة العبرة والعظة .

المتقون : اسم فاعل من اتقى ووزنها افتعل وأصلها وقى والأصل في استعمالها اتقـاء العذاب (فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة – واتقوا يومـا ترجعون فيـه إلى الله) ثم استعملت في مثل قوله تعالى : (واتقوا الله – اتقوا ربكم) أي عقابه وعذابه ثم استعملت مع حذف المفعول (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) بمعنى العمل الصالح الذي يرضي الله .

حسرة : الحسرة الغم على مـا فات والندم عليه (يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) .

الكافرين : من الألفاظ التي استحدثها القرآن من كفر واصل معناها ستر ثم صارت بمعنى ستر الحق وجحوده ثم خصصت بإنكار الدين وجحوده وضدها الإيمان من آمن بمعنى صدّق وخصصت بمعنى التصديق بالدين .

سبّح : تسبيح الله تنزيهه وتقديسه وأصل السَّبْح المر السريع في الماء والهواء . (وكلٌّ في فلك يسبحون) ومنه التقلب في الحياة وسرعة العمل (إن لك في النهار سبحاً طويلا).

(٢)

الشرح الأدبي

سورة الحاقة من سور العهد المكي . وهدف ما نزل في هذا العهد من الآيات والسور توطيد أسس العقيدة الجديدة وإحلالها محل العقيدة الوثنية ، وإثارة العربي الذي كان لا يبالي كثيراً بأمور العقيدة ولا يفكر بما وراء هذه الحياة ، وعقيدته حين يفكر في العقيدة مزيج من الإيمان بالله كما بشر به ابراهيم في جزيرة العرب ، والأوثان التي توافدت من شتى الأطراف وراج الاعتقاد بها في تلك الفترة الفاصلة بين العهدين عهد إبراهيم واسماعيل وعهد محمد عليهم الصلاة والسلام .

ولقد كان من الحكمة ألا تتعرض السور المكية الأولى

للجزئيات والتفصيلات ولكنها تقابل عقيدة بعقيدة وأفكاراً بأفكار ومفاهيم للحياة بمفاهيم أخرى جديدة . والسور المكية مع اشتراكها جميعاً في هذه الناحية تنقسم إلى قسمين : فمنها السور التي تكون طريقتها إثارة السامع ومفاجأته بما يهزه ويحركه ليصغي إلى ما تتضمنه الآيات وليفكر فيما احتوته من أفكار . فجانب الإثارة في هذا النوع من السور بارز واضح وتكون هذه الإثارة عن طريق الألفاظ الجديدة أو الصور الرهيبة أو النغمات الشديدة أو غير ذلك مما يوقظ الفكر ويحرك القلب . وأما القسم الآخر من هذه السور المكية وطريقته طريقة الجدل وبسط الأفكار وعرض المشاهد وتفصيل القصص واستنتاج العبر . والهدف المقصود والأفكار المبثوثة في كلا القسمين واحدة ولكن طريقة العرض مختلفة لاختلاف حال المخاطبين واختلاف الطور الذي بلغته الدعوة .

وسورة الحاقة هذه من النوع الأول الذي تغلب عليه طريقة الإثارة والإيقاظ .

تفتتح السورة بثلاث آيات قصيرة متوالية شديدة الوقع جديدة في التعبير تطول بالتدريج شيئاً فشيئاً : الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة . الآية الأولى منها كلمة واحدة مبتدأ فصل عنه خبره . وذلك يدعو السامع إلى التساؤل والتفكير : وما المراد بالحاقة ؟ وهي من حق الأمر يحق إذا وجب وتحقق ووقع . تعبير جديد وتسمية جديدة لموضوع

يجهله السامع ويتلهف لمعرفته فإذا سمع الآية الثانية (ما الحاقة) ازداد الأمر غموضاً فالجملة هنا استفهامية ، وذلك مما يزيد شوقه وتلهفه إلى معرفة الجواب ، فإذا بالآية الثالثة ، وهي أطول الثلاثة ، وهي كذلك أشدها تساؤلاً واستفهاماً ، لتضمنها لاستفهامين (وما أدراك ما الحاقة) وأدعاها لترقب الجواب والتلهف لمعرفة الحقيقة .

ثلاث موجات متعاقبة، متدرجة في الطول، وكلها قصيرة، يتوالى فيها السؤال والاستفهام ، وتتكرر فيها كلمة (الحاقة) ، وهي الكلمة الجديدة التي تعبر هنا عن يوم القيامة والحساب ، وتتكرر فيها هذه القاف المشددة التي تقرع السمع قرعاً ، والمسبوقة بالمد الطويل الممهد لها والمبرز لشدتها والمختومة بالهاء التي تنطفىء عندها شدتها .

إنها لمقدمة مثيرة ، من حيث معناها ، ومن حيث نغمتها وجرسها ، يتهيأ بها السامع كل التهيؤ للإصغاء ، ويستعد لتلقي ما سيتلى عليه من أنباء .

ويأتي هنا القسم الثاني من السورة ، وفيه مجموعة من أخبار التاريخ وقصص الماضي ، معروضة عرضاً سريعاً قوياً موجزاً، غايته التفكر في المصير ، مصير الإنسان والإنسانية .

ابتدأت الآيات بذكر قوم عاد وثمود ، وليس خبرهم من أهل الجزيرة ببعيد ، فهم من الأجيال العربية السابقة . والمهم

في أمرهم هنا أنهم كذبوا (بالقارعة) . والقارعة لفظ جديد استعمل في القرآن لأول مرة بمعنى يوم القيامة والحساب واشتق من فعل (قرع يقرع) لما يتصف به ذلك اليوم من الهول والشدة التي تقرع القلب والأذن. وكانت نتيجة التكذيب بالحساب – حساب الانسان على أعماله – الهلاك ، وتصف هذه الآيات هلاك ثمود وعاد. وتختم بهذه الصورة الحسية القوية (فترى القوم فيها صرعى . كأنهم أعجاز نخل خاوية)،ثم بهذا الاستفهام الداعي إلى التأمل والتفكير (فهل ترى لهم من باقية !) . ثم تطوي الآيات صفحات التاريخ رجوعاً إلى الماضي البعيد ، فتشير إشارة سريعة إلى فرعون ومن قبله ، وإلى قرى قوم لوط المنقلبة بأهلها (المؤتفكات) . وهؤلاء جميعاً كان الهلاك جزاء عصيانهم رسول ربهم . ومن وراء هؤلاء جميعاً قصة الطوفان التي لخصت هنا في آيتين اثنتين بل في آية واحدة ، ونبه في الثانية لما في الحادثة من عبرة (انا لما طغى الماء حملناكم في الجارية . لنجعلها لكم تذكرة وتعيها أذن واعية) .

ثمان آيات استعرضت فيها استعراضاً سريعاً صفحات من التاريخ وعبر من الماضي وتوالت فيها الحوادث ، والموضوع هو الإنسان ومصيره ، وعواقب تكذيبه ليوم الحساب .

القسم الثالث :

ثم تنقلنا السورة من التاريخ البعيد والماضي السحيق ، إلى

المستقبل البعيد ، إلى ما بعد هذه الحياة . وهـــذا الانتقال وحده ضرب من المفاجأة المثيرة ذلـك أنه قفزة جد واسعة من أقصى حدود الماضي البعيد إلى المستقبل البعيد . وفي هذا القسم من السورة تصوير مخيف لليوم الذي تنتهي فيه الحياة ، ويضرب فيه نظام الكون . ويؤذن بذلـــك نفخة الصور ، ويعقبها ترامي الجبال ، إذ تدكُّ في الأرض دكاً ، وانشقاق السماء وانفراط عقد نجومها ، ثم تظهر العظمة الإلهية مستوية على العرش الذي تحمله الملائكة ، ويعرض الناس على الحساب ، لا تخفى من أعمالهم خافية . وتبدو في هـــذا القسم الفكرة الأساسية التي هي هـــدف السورة وما ورد فيها من صور التاريـــخ ومشاهد القيامة ، وهي فكرة الحساب ، فكرة مسؤولية الإنسان عن أعماله . وفي هذا القسم صور موجزة سريعة ، ولكنها قوية مثيرة ، تبعث على التفكير .

وأما **القسم الرابع من السورة** : ففيه الحساب والجزاء . ويبدو فيه مشهدان : مشهد أهل النعيم الذين آمنوا بالحساب في الحياة الأخرى ومشهد أهل الشقاء الذين اعتمدوا على المال والسلطان وأغفلوا يوم الحساب .

ففي المشهد الأول : يتحدث من أوتي كتابه بيمينه – وإتيـــان الكتاب باليمين كناية عن اليمن والخير – فرحاً مسروراً فيقول: هاؤم اقرؤوا كتابيه ، ويذكر سبب سعادته ، ذلك انه اعتقد بالمسؤولية والحساب ، وسلك في حياته السلوك

الذي يقتضيه هذا الاعتقاد فكان صالحاً محسناً (اني ظننت اني ملاق حسابيه) . ثم تأتي الآيات على وصف حياته ، (فهو في عيشة راضية : في جنة عالية ، قطوفها دانية). آيات ثلاث. قصيرة وجيزة، ولكنها تعبر كل التعبير عن سعادته مع خطوط سريعة لصورة حسية يزينها التقابل بين العلو والدنو . فالجنة عالية مرتفعة ، وقطوفها دانية متدلية . ثم يوجه الخطاب إلى هذا الانسان السعيد بطريقة تمثيلية تجعل الصورة حية بهـذا الخطاب الموجه له ولأمثاله من أهل اليمين : (كلوا واشربوا هنيئاً بما أسلفتم في الأيام الخالية) . وقد تضمن هذا الخطاب الربط بين العمل الصالح في الحياة الماضية ومكافأته بالحيـاة الرغيدة الناعمة في يوم الجزاء والحساب . ثم يتحدث من أوتي كتابه بشماله – وذلك كناية عن الشؤم وسوء العاقبة– فيتمنى .انه لم يؤت كتابه ولم يدر حسابه ويتمنى لو كانت ميتته ميتة الفناء النهائي ، ويندم – ولات ساعة مندم – على اعتماده على المال والسلطان . ثم يتوجه إليه الخطاب من غير لفظ يشعر بقائل ، وذلـك أقوى في التمثيل واستحضار المشهد، كأن السامع للآيات يرى ويسمع . أما الخطاب الموجه لفاعل الشر ومستحق العقـاب فيتضمن صوراً رهيبة مخيفة : « خذوه فغلوه ثم الجحيم صلّوه. ثم في سلسلة –ذرعها سبعون ذراعاً– فاسلكوه » .

الأخذ والتقييد بالأغلال ثم الالقاء في نار الجحيم ثم لفـه

بسلسلة طولها سبعون ذراعاً . صور حسية ومشاهد تبعث الرعب .

ثم يأتي بيان سبب العقاب الشديد : (إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ، ولا يحض على طعام المسكين) ذلك هو عدم الإيمان بالله والاعراض عن الحض على إطعام المساكين فجزاء ذلك أن لا يكون له طعام إلا عصارة الثوب القذر .

والقسم الخامس من السورة : يتضمن فكرة أخرى أساسية من الأفكار التي تتضمنها السور المكية وتلح عليها وتبرزها وهي أن القرآن وحي من الله ، وما محمد بن عبدالله صلوات الله عليه إلا رسول مبلغ لرسالة ربه لا يزيد فيها شيئاً ولا ينقص منها شيئاً . يبتدىء هذا الفصل من السورة بقَسَم جامع شامل (فلا أقسم بما تبصرون وما لا تبصرون)، أقسم بالوجود كله ، ما يرى منه ويشاهد ، وما وراءه مما لا يبصر ولا يشاهد من العالم المغيب عن حواس الانسان . وهل هنالك قسم أجمع في مضمونه من هذا القسم الذي تضمن (عالم الشهادة) و (عالم الغيب)، عالم الطبيعة وما وراء الطبيعة . وقد صدر القَسَم بالنفي وهو أسلوب معروف عند العرب . إما باعتبار أن لا هنا زائدة وإما بمعنى انني لا أقسم لأن الأمر المقسم عليه واضح وضوحاً لا يحتاج معه إلى القسم .

تنفي الآيات التالية عن الرسول ﷺ صفة الشعر والكهانة رداً على المعاندين من المشركين وتثبت له صفة الرسالة وللقرآن

صفة النزول من عند الله (رب العالمين) ثم تؤكد هذا المعنى بآيات تتضمن التهديد تهديد الرسول نفسه صلوات الله عليه (ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين فما منكم من أحد عنه حاجزين) . والمتكلم هنا بصفة الجمع هو الله موحي القرآن ومنزله على رسوله ، والتهديد الموجه للرسول مصوغ في صيغ شديدة ولكنه مصدر بلو وهي أداة امتناع لامتناع .

وتختتم السورة بتعابير تتضمن وصف القرآن فهو للمتقين تذكرة أي تعليم وإرشاد وهو على الكافرين به المعرضين عنه سبب للحسرة والندامة . وهو في ذاته يقين وحق بل هو (حق اليقين) . والآية الأخيرة التي ختمت بها السورة خوطب بها الرسول نفسه صلوات الله عليه تثبيتاً له وحضاً له على الاتصال بربه والتسبيح بحمده (فسبح باسم ربك العظيم) .

الأفكار الأساسية في السورة :

يبدو لنا من استعراض آيات هذه السورة وأقسامها المتعددة أنها تتضمن الأفكار الأساسية التالية :

١) مسؤولية الانسان عن أعماله أمام الله في الحياة الآخرة في يوم الجزاء والحساب . وهذا ما أشارت اليه السورة في ألفاظ الحاقة والقارعة والواقعة ، وتبين بوضوح في قوله تعالى (يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية) ، وفي قوله على لسان

من أوتي كتابه بيمينه (إني ظننت أني ملاق حسابيه) ، وعلى لسان من أوتي كتابه بشماله (يا ليتني لم أدر ما حسابيه) .

٢) القرآن كتاب الله المنزل على رسوله ، فهو تنزيل من رب العالمين وهو تذكرة للمتقين المؤمنين ، وهو حق اليقين . والرسول مبلغ لرسالة ربه كما تلقاها من غير زيادة ولا نقصان.

٣) وتتضمن السورة فكرة الإيمان بالله على أنها فكرة مسلم بها ، ولم تأت السورة لبيانها بل هي متضمنة في الفكرتين السابقتين : مسؤولية الانسان أمام الله ، وكون القرآن تنزيلاً من الله يبلغه رسوله المكلف بتبليغه وقد ورد ذكر الله في آيات عدة (فعصوا رسول ربهم) (ويحمل عرش ربك) (كان لا يؤمن بالله العظيم) (تنزيل من رب العالمين) (فسبح باسم ربك العظيم) .

افكار أخرى عارضة :

وقد تضمنت السورة أفكاراً أخرى منها :

١) إن المال والسلطان زائلان وليسا خالدين حتى يعتمد عليهما (ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانيه) .

٢) ومنها الحض على إطعام المساكين والإحسان اليهم .

٣) ومنها أن ارتكاب الخطايا ومعصية الرسول تسبب الهلاك .

جو السورة العام :

إن جو السورة جو التهديد والإرهاب فقـــد افتتحت (بالحاقة) و (القارعة) وتلا ذلك (هلاك الأقوام) و (أهوال يوم القيامة) وصُوّر فيها (جو المعارضة) معارضة المشركين وتكذيبهم للرسول ودعوتـــه وتضمنت التهديد والوعيد كما تضمنت تثبيت الرسول ﷺ في دعوته وفي صلته بربه .

طريقة السورة وأسلوبها في العرض :

تنوع أسلوب السورة في عرض مـــا تضمنته من أفكار واحتوت على فنون متعددة منها :

١) العرض التاريخي وهو عرض سريع لحوادث تاريخية بارزة في خطوطها الكبرى وانتقاء لصور موجزة مؤثرة يراد منها العبرة .

٢) الوصف والتصوير بطريقة موجزة قوية وذلك في عرض حوادث التـــاريخ ووصف مشاهد القيامـــة ويوم الحساب والجزاء .

فمن الصور الحسية : الريح الصرصر العاتية و (ترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) و (لما طغى الماء) و (نفخ في الصور) و (حملت الأرض والجبـــال فدكتا دكة واحدة) و (انشقت السماء) (والملك على أرجائها) (ويحمل

عرش ربك) و (يومئذ تعرضون) و (في جنة عالية قطوفها دانيـة) و (في سلسلة ذرعهـا سبعون ذراعاً فاسلكوه) والصور المعروضة في هذه السورة مشوبـة على الأكثر بروح الترهيب والتهديد والتعظيم .

٣) التمثيل والحوار .

ومن ذلك حديث أهل الجنة (هاؤم اقرؤوا كتابيه ...)

وحديث أهل النار (يا ليتني لم أوت كتابيه ...)

والخطاب الموجه لكل منهما (كلوا واشربوا هنيئاً ...) (خذوه فغلوه ...) إن في فسح المجال لأهل الجنة والنار أن يتحدثوا، وفي توجيه الخطاب لهم بدلاً من الكلام عنهم بصيغة الغائب إحضاراً للصورة وإبرازاً لها وإحضاراً للمشهد .

٤) العرض المجرد ، ومن الأفكار ما عرض عرضاً مباشراً كالقسم الأخير من السورة (إنه لقول رسول كريم .....)

الأسلوب :

تتألف السورة من آيات يغلب عليهـا القصر فقد تكون الآية كلمة واحدة كالحاقـة أو كلمتين أو بضع كلمات ولكنها لا تطول كثيراً على كل حال ، وبين الآيات ترابط واتصـال ولا سيما في كل قسم من أقسام السورة التي شرحناهـا ؛ فكل قسم من أقسام السورة يتضمن موضوعـاً أو فكرة واحدة

وتتسلسل آياتــه وتتصل حتى تؤدي المعنى وتعبر عن الفكرة (فاذا نفخ ... وحملت ... فيومئذ وقعت ... وانشقت...)

وإن تنوع الآيات واختلافها في الطول والقصر أكسبها جدة وحيوية وكذلك اختلاف تراكيبها فمنهـــا الجمل الفعلية حين تصوير الحوادث (فاذا نفخ في الصور ... وحملت الأرض ... فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء... ويحمل عرش ربك...)

ومنها الجمل الاسمية للتعبير عن الحقائق الثابتة (إنه لقول رسول كريم) (تنزيل من رب العـــالمين) (وإنه لتذكرة للمتقين)، ولتصوير الأحوال المستقرة (فهو في عيشة راضية). ومن الجمل مــا ورد بصيغة الاستفهام للحض على التأمل وإثارة التفكير (ما الحاقة ؟ ومـــا أدراك ما الحاقة ؟) أو للنفي (ترى لهم من باقية ؟) .

ومنها ما ورد بصيغة التمني للتعبير عن الحسرة (يا ليتني لم أوت كتابيه ؛ يا ليتها ...) وأما سائر الجمل فقد جاءت بصيغة الخبر ولكن تنوعَ فيهـا الفعل فقد يأتي بصيغه الماضي للتاكيد والتحقيق مع انه من حيث المعنى مستقبل (فيومئذ وقعت الواقعة) ، وقد يأتي بصيغة المضارع لاستحضار الماضي البعيد فكأنه حاضر قريب (فترى القوم فيها صرعى) .

وقد جاءت التعابير في السورة مجسمة للحوادث مبرزة لها وذلك كقوله تعالى (ريح صرصر عاتية) . فلفظ (صرصر)

يصور صوت الريح ، ولفظ (عاتيـة) يفيد معنى الشدة ، و (طغى المـــاء) فيها نسبة الطغيان وهو التجـاوز والظلم إلى الماء .

وقد رتبت الجمل في بعض الآيات على غير الترتيب الطبيعي فقدم ما حقه التأخير أو أخر ما حقه التقديم . وذلك كقوله (ويحمل عرش ربك فوقهم ثمانية) ، فوضع الفاعل في آخر الجملة وقدم عليه المفعول والظرف فاكتسبت الجملة بذلك جمالاً في الجرس والنغمـــة ، وكذلك أخر الفعل وقدم المجرور في قوله (ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه)،وكذلك في عدة آيات أخرى (فما منكم من أحد عنه حاجزين) (فليس له اليوم ههنا حميم)،وفي كل هذه الآيات كان للتقديم والتأخير أثر واضح في حلاوة النغمة بالاضافة إلى دقة المعنى .

الألفاظ المفردة :

١) التجديد اللفظي: من الألفاظ ما هو جديد في استعماله للمعنى الذي استعمل له (كالحاقة) و (القارعة) و (الواقعة) وكلها ألفاظ معروفة من حيث اشتقاقها ولكنها جديـــدة في إطلاقها على معنى يوم القيامة ولهذه الجدة أثر في نفس السامع، في إثارته وتنبيهـه إلى المعنى المقصود ، وهي مشتقة من حق وقرع ووقع وكلها تتضمن معنى القوة والتحقق، وكذلك لفظ (الحساب) فقد استعمل في السورة بمعنى حساب الإنسان على

أعماله في الحياة الدنيا لا بالمعنى العام . ومن الألفاظ القرآنية الجديـدة في السورة (يؤمن) و (الكافرين) و (المتقين) و (رب العالمين) .

٢) قوة التصوير والمناسبة بين المعنى واللفظ :

في السورة ألفاظ مصورة لمعناهـا مثيرة لمدلولها كلفظ (غسلين) فهي بجرس حروفها وصيغتها المنتهية بالياء الممدودة بعدها نون توحي بمعناها وكذلك لفظ (أسلفتم) فهي مناسبة بنعومة جرس حروفها من السين والفاء واللام لمعنى الخير والنعيم و (الدك) في دكتا دكة واحدة مقابلة لمعناها ومثلها (الحاقة) و (القارعة) بشدة وقعها واحتوائها على حرف القاف وعلى التشديد بعد المد .

٣) دقة التعبير وحسن الاختيار : ويبدو ذلك في مثل الألفاظ التالية :

تقوّل علينا ، تعرضون ، دكّتا ، الأقاويل ، حاجزين ، أسلفتم ، المؤتفكات ، الخاطئة .

نغمة السورة وموسيقاها :

يشعر قارىء هذه السورة بالمناسبة التامـة والانسجام الواضح بين موضوعها ونغمتها ، فقد جاءت مقدمتها قويـة الجرس ذات فواصل قصيرة متلاحقـة متدرجة في الطول ثم أعقبتها آيات يغلب عليها القصر وتتوازن فيها المدود والحركات

في توزيع منسجم وهي الآيات التي صورت حوادث التاريخ (فأما ثمود فأهلكوا بالطاغية ... الخ) . فاذا ما بلغت قوله تعالى (فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية) شعرت أنك ترتل قطعة موسيقية موزونة وتسير في هذه الموجات المنسجمة حتى آخر هذا القسم من السورة ثم تنتقل إلى نغمة أخرى وفواصل مختلفة حين يبتدىء القسم الثالث من السورة وفيه تصوير يوم القيامة (فاذا نفخ في الصور نفخة واحدة ... الخ) .

وهكذا تتناسب المعاني مع النغمات وتنسجم الأفكار مع الأصوات والأوزان فتشعر بالحسرة والتأوه حينما تصغي إلى من أوتي كتابه بشماله (يا ليتني لم أوت كتابيه ولم أدر ما حسابيه ...) وتحس بوقع ذلك الصوت الأجش الشديد الذي يأمر بزجه في جهنم في قوله تعالى (خذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه) وتحس بطول تلك السلسلة التي يُسلك فيها حينما تسمع قوله (ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه) .

وهكذا نجد المقابلة بين موضوع السورة ونغمة آياتها وحسن تقطيعها والانسجام بين معانيها وأفكارها من جهة وموسيقى ألفاظها وتراكيبها من جهة أخرى .

Where are u now what had u [illegible]
is your heart [illegible] around!

don't leave me
but u do why?
I Love u
your idiot

من سورة النحل

بسم الله الرحمن الرحيم

أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ . يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى
مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا
فَاتَّقُونِ . خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا
يُشْرِكُونَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ
مُبِينٌ . وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا
تَأْكُلُونَ . وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ

تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم . والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون . وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين . هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون . وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون . وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه . إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من

فَضْلِهِ ، وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ
رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَسُبُلاً لَعَلَّكُمْ
تَهْتَدُونَ . وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ . أَفَمَنْ
يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ. وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ
اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ . وَاللهُ يَعْلَمُ مَا
تُسِرُّونَ وَمَا تُعْلِنُونَ . وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ
لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ . أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا
يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ . إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا
يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ.
لَا جَرَمَ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ
لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ .

اسم السورة : سميت السورة بالنحل لورود ذكر النحل في آية من آياتها كما سميت كثير من السور بلفظ بارز من ألفاظها تمييزاً لها من غيرها، وذلك كسورة العنكبوت والنمل والبقرة والانعام والحديد وكما سميت غيرها باسم موضوع أو فكرة أو

حادثة تضمنتها السورة كسورة المؤمنون والمنافقون والكافرون والنساء والأنفال والمجادلة والشورى والنصر .

المرحلة التي نزلت فيها السورة :

نستطيع أن نحدد المرحلة التي نزلت فيها ونتصور الظرف الذي ألقيت فيه باستعراض آياتها وما تتضمنه من موضوعات وحوادث والطريقة التي عرضت فيها . فالسورة تدور حول موضوع الدعوة إلى الإيمان بالله الخالق المنعم في مقابل عقائد الشرك والوثنية والأساطير الجاهلية، بطريق الدعوة إلى التأمل في آيات الله ، والتفكر في الكون وما فيه ، كما أنها لا تخلو من التهديد بالعذاب العاجل والعقاب الآجل . وهي تتضمن من جهة أخرى إشارات صريحة إلى هجرة المؤمنين فراراً بدينهم (والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا .. ٤١) (ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ١١٠) . وتضمنت السورة أمراً بالصبر وعدم الحزن وبالدعوة بالحكمة والمجادلة بالحسنى . وهذه الامور بمجموعها تدل على أن السورة نزلت في العهد المكي ، وان الدعوة الإسلامية كانت اجتازت مراحلها الأولى واشتدت وطأة المعارضة وحصلت الهجرة إلى الحبشة فراراً من الاضطهاد ، واحتدم الجدل بين المؤمنين والمشركين في موضوع الدعوة الجديدة وحول الإيمان بالله والحياة الآخرة والمفاهيم الأخرى التي يختلفون فيها .

لا تتناول السورة إلا العناصر الأساسية من الدعوة ومبادئها العامة ، وفيهـا تصويرٌ لإيمان المؤمنين وصبرهم وجهادهم . ولا يقصد هنا بالجهاد القتال لأن القتال لم يكن قد بدأ ، وإنما يراد به الثبات على الدين . والمجادلة على عقائده ومبادئه ، ومقاومة تحدي المشركين ، والصبر على أذاهم .

هذا هو جو السورة ، وهو جوٌّ يغلب عليه الدفـاع عن العقيدة وعرضها وبسطها وتأييدها بالحجج والأمثلة والشواهد والرد على العقـــائد المخالفة لها والترغيب فيهـا وفي نتائج الإيمان بها .

موضوع الآيات وفكرتها الأساسية :

إن موضوع الآيات التي اخترناها للتفسير وهي من (١ – ٢٣) ومن (٦٥ – ٦٩) هو الدعوة عن طريق التـأمل في مشاهد الكون إلى الإيمان بخالق الكون وإلى عبادته وشكره وقد تضمنت هذه الآيات صورة واضحـــة شاملة عن الكون وأجزائه والطبيعة وآفاقهـــا . وموضوع هذه الآيات يؤلف جزءاً من أجزاء الموضوع العام الذي اشتملت عليـــه السورة والذي هو عرض شامل للعقيدة الجديدة في مقـــابل المفهوم الوثني الذي كان يقوم عليه العهد الجاهلي .

تفصيل الأفكار :

١) افتتحت السورة بـآيتين : احداهما تهديد بالعقـــاب

العاجل ، وذلك لما في التهديد من قوة تنبيه السامع ليصغي إلى ما سيلقى إليه ، وهو في الوقت نفسه رد على تحدي المشركين حين طلبوا نزول العذاب عليهم .

ولهذه المقدمة أمثال في سور أخرى كقوله تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر) وقوله (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب وليأتينهم بغتة وهم لا يشعرون) .

وقد ذيلت الآية بتنزيه الإله عما يصفونه به من الشرك والشركاء .

وأما الآية الثانية فقد تضمنت موضوع السورة وهو الإيحاء إلى الأنبياء (ينزّل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده) بموضوع الرسالات والنبوات الأساسي المشترك (أن أنذروا أنه لا إله الا أنا فاتقون) وهو وحدانية الإله وما يستلزم ذلك من عبادته وطاعته .

تلك هي مقدمة السورة التي تضمنت المفاجأة بالتهديد ورد التحدي وأساس الدعوة الجديدة وهو توحيد الإله والعمل بما تقتضيه تقواه .

٢) تضمنت الآيات التالية ٣ - ١٦ صورة شاملة عن الكون ، وطوافاً في آفاقه ، وعرضاً لأجزائه وأقسامه . فكانت الآية الأولى منها بجملة (خلق السموات والأرض) ثم يعقبها التفصيل ابتداء من الانسان (خلق الانسان من نطفة

فإذا هو خصيم مبين) ، الإنسان بين كونه نطفة إلى كونه مفصحاً عن آرائه مجادلاً عنها . ويلي الإنسان أنواع من الحيوان منها (الانعام) فيذكر أولاً خلقها (والانعام خلقها) ثم يتلو ذلك ما فيها من منافع للإنسان (لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون) ثم ما يكون في مشهد القطعان الغادية صباحاً إلى المرعى والراجعة مساء من جمال (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) ثم يضيف ما لها من منافع أخرى باعتبارها وسائل للحمل والركوب (وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس . إن ربكم لرؤوف رحيم). ثم تنقلنا الآيات إلى أنواع الحيوان المستعملة للركوب والتي في بعضها جمال وزينة (والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة) ثم تختم الجملة بما يشعر أنها ليست وحدها وسائل الركوب فهناك من الحيوان ومن الوسائل التي يخلقها الله ما لا تعرفونه (ويخلق ما لا تعلمون) .

ويلي هذه الآية آية فاصلة بين موضوعين أو نوعين من أجناس الطبيعة ختمت بها الآيات التي تحدثت عن الإنسان والحيوان وهي قوله تعالى (وعلى الله قصد السبيل) أي أن الله تكفل بدلالة الانسان على الطريق القويم والسبيل القاصدة غير المنحرفة إمّا بدلالة آتية في الكون عن طريق العقل أو بإخبار الرسل الموحى إليهم . (ومنها جائر) ومن السبل ما هو منحرف جائر (ولو شاء لهداكم أجمعين) ولو شاء أن

يخلق الإنسان مهدياً بغريزته كالحيوان لفعل ولكن حكمته اقتضت أن يميز الإنسان بالعقل المستدل والإرادة الحرة المختارة وأن يترك له الاهتداء بعقله والاستدلال بنفسه على الطريق المستقيم واكتفى بإرشاده إليه وبذلك كان الإنسان من بين أنواع المخلوقات مفضلاً بالعقل مكرماً بالإرادة . فهذه الآية بين الآيات تشبه تذييل بعض الآيات بقوله تعالى (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) وهي مشتملة على هذا المعنى نفسه .

ثم تنتقل بنا الآيات الكريمة إلى ميدان آخر من ميادين الطبيعة وهو ميدان النبات : (هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والاعناب ومن كل الثمرات . إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

تعرضت هذه الآية للماء ونزوله وهو موضوع طالما تحدثت عنه آيات الكتاب الكريم في سور كثيرة في شيء من التفصيل أحياناً بذكر السحب وتراكمها والماء وهطوله والينابيع وتكونها ، وبالإجمال أحياناً أخرى. كما يذكر الماء تارة بمناسبة تسببه لنمو النبات وذلك كقوله تعالى في سورة الروم (الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله) وقوله في سورة النور (ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله) وفي سورة الزمر (ألم

تر أن الله أنزل من السماء مـاء فسلكه ينابيع في الأرض ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه) وفي سورة الحج (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فتصبح الأرض مخضرة) .

وبعد الحديث عن نزول الماء ومنافعه للإنسان للشرب وإنبات النبات ورعي الماشية لمـا ينبته من نبات وشجر ، تتحدث الآية عن الزرع بوجه عام ثم تعدد منه أنواعاً تعرفها العرب كالزيتون والنخيل والأعناب ثم تعود إلى التعميم (من كل الثمرات) وذلك على الطريقة نفسها التي جاءت في الآية السابقة من تخصيص أنواع من الحيوان ثم التعميم . وتنتهي آيتا النبات والماء بالدعوة إلى التفكير (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) .

وتنتقل بنا الآيات الكريمة بعـد هذا الطواف على عالم الإنسان والحيوان والنبات إلى عالم الأفلاك (وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر . والنجومُ مسخرات بأمره . إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) في هذه الآية ذكر لظاهرة الليل والنهار وهي ظاهرة طالما تحدث عنها القرآن في صور متعددة كثيرة ولفت النظر إليها .

(والله يقدر الليل والنهار) ، (يغشي الليل النهـار) ، (يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل) ، (جعل الليل والنهار خلفة) وغيرها من الآيات المشابهة . وفيها ذكر

للشمس والقمر والحديث عنهما في القرآن كثير متعدد الصور وكثيراً ما يقترن بالحديث عن الليل والنهار كقوله تعالى (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) . وكذلك الكلام عن النجوم المسخرة حسب خطة مقدرة مرسومة لها . وقد ورد في القرآن القسم بمواقعها (فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) . وقد ختمت هذه الآية المتضمنة لعالم الأفلاك وأجزائه وظواهره بقوله تعالى (إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون) وجاءت كلمة الآيات بصيغة الجمع لسعة آفاق هذا العالم بالنسبة إلى عالم النبات الذي تقدم ذكره .

ثم يعود الكلام إلى أجزاء الأرض وما خلق الله فيها من أنواع المخلوقات (وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه) وختمت الآية كذلك بما يدعو إلى التفكر والتأمل (إن في ذلك لآية لقوم يذّكرون) .

ثم يكون الحديث عن البحر وما فيه : (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) فتضمنت هذه الآية ما في البحر من منافع للانسان ، من استخراج حيتانه للأكل ، ولآلئه للزينة ، واتخاذه طريقاً للمواصلات والتجارة وختمت بما يقتضي الشكر على هذه المنافع . ثم يأتي الحديث عن الجبال وحسن توزعها ، وما في

الأرض من أنهار وسبل يهتدي بها الإنسان (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم) أي لئلا تضطرب بكم الأرض . والمَيَدان هـو الاضطراب الذي يقع للأجسام سواء أكانت متحركة أم ثابتة . (وأنهاراً وسبلاً لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون) ، وفي الأرض كما في السماء معالم يهتدي بها الإنسان ، ويتخذها وسائل للاهتداء في تعيين الجهات ،وتحديد الاتجاهات ، وتعيين المواقع .

وهكذا طافت بنا هذه الآيات الكريمة من سورة النحل في آفـاق الطبيعة ، في عالم الانسان والحيوان والنبـات ، في الأرض والسماء ، في البر والبحر ، وانتهت بعد هـذا الطواف بطرح هذا السؤال :

(أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) كما أنهـا كانت بدأت بفكرة الخلق أول ما بدأت (خلق السموات والأرض... خلق الإنسان ... والأنعام خلقها .. الخ)

إن هذا السؤال يطرح مشكلة الوجود الكبرى وذلك بعد أن صورت الآيات الكون وعرضت للفكر آفـــاق الطبيعة وأنواع المخلوقات وفي عرض الموضوع على طريقة السؤال دعوة للتأمل والتفكير . وقد أكد هذا المعنى بما ذُيّلت بـه الآية (أفلا تذكرون) .

لقد عرضت هذه الآيات الثلاث عشرة من السورة صورة جامعـــة للكون في شيء من التفصيل بذكر أقسامه الكبرى

(عالم الافلاك ، عـالم النبات ، عالم الحيوان ، الخ) . ولهذه الصورة الكلية للكون خصائص هامة سنذكرها لمـا كان لها من أثر في الحضارة والفكر .

وإن عرض هذه الصورة لم يكن مقصوداً لذاتـه ، وإنمـا كانت الطبيعة المصورة هنا نقطة انطلاق لغاية وراءها ، وهي نقل الانسان عن طريق التأمل والتفكير فيها إلى الإيمان بخالق هذه الطبيعـة – كما بدا لنـا من هذا السؤال المطروح – ثم إشعاره بفضله عليه وصلته به بما سخر له من هذه الطبيعة من منافع . وتلك هي الفكرة المتجلية في الآية التالية (وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها . إن الله لغفور رحيم) .

فالمفهوم القرآني للاله لا يقف عند تصور الاله قوة خالقة للكون بل يتجاوز ذلك إلى كشف الصلة فيما بين الله والانسان وتوليد أنواع من العواطف لدى الإنسان بناء على هذه الصلة . فالصلة التي كشفتها هذه الآية ، مضافة إلى مـا تقدمها من الآيات التي أوضحت ما سخره الله للانسان من منافع الطبيعة، هي صلة الأنعام فنعمة الله على الإنسان لا يمكن أن تحصى ، وهي تولد طبعـاً عاطفة الشكر والشعور بالفضل . ولكن الإنسان كثير الجحود لفضل الله عليـه ، كثير الغفلة ، قليل الشكر ، ولذلك ذيلت الآية بقوله تعالى (إن الله لغفور رحيم) فهو رحيم بالإنسان يغفر له غفلته هذه .

أما الآيات التالية : (والله يعلم ما تسرون وما تعلنون

والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيّان يبعثون . إلهكم إله واحد . فالذين لا يؤمنون بالآخره قلوبهم منكرة وهم مستكبرون . لا جرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه لا يحب المستكبرين) .

فقد تضمنت بعض صفات الإله الخالق التي هي نتيجة للفكرة السابقة أي كونه خالقاً للكون ، وتضمنت الموازنة بينه وبين الآلهة المزورة . فكونه خالقاً لهذه الطبيعة بأقسامها وأنواعها يقتضي كونه عالماً بها وبخفاياها والإنسان جزء منها فالله يعلم ما يسره الإنسان وما يعلنه . وهذه صلة أخرى بين الله والإنسان وهي أن الإنسان بكل ظواهره وخوافيه معلوم ومكشوف لله ، وهذا يقتضي من الإنسان أن يستشعر ذلك ويستحضر هذا المعنى فيعلم أن كل ما يعمله أو ينويه يعلمه الله .

وأما الآلهة المزورة سواء أكانت أصناماً أم أي شيء آخر فهي فاقدة لهاتين الصفتين، غير قادرة على الخلق بل هي نفسها مخلوقة ، وفاقدة للشعور والعلم . وتختم هذه الأفكار بفكرة أساسية (إلهكم إله واحد) هي وحدانية الإله .

الخصائص الفكرية – الطبيعة في هذه الحياة :

إن من المهم لمعرفة أثر القرآن في العرب خاصة وفي الحضارة الإنسانية عامة أن نتلمس ما توحيه آياته من أفكار وما تتركه

في النفس من انطباعات . ولو نظرنا في هذه الآيات التي أخذنا في تفسيرها وبيانها من هذه الناحية لوجدنا أنهـــا تحتوي على صورة للكون أو الطبيعة ثم تربط هذه الطبيعة كلها بالخالق . فما هي هذه الصورة التي تعطيها عن الطبيعة وما هي صفاتها وخصائصها ؟

١) أول ما يبدو لنا بعد استعراض الآيات أنها تحتوي على صورة شاملة جامعـة للكون . ولم تكن هذه الصورة الشاملة واضحة فيما سبق القرآن من كتب منزلة وكأن العقل البشري لم يكن مستعداً لتلقي هذه الصورة العامة . ولم يكن العربي كذلك قبل الإسلام ينظر إلى الطبيعة إلا نظرات جزئية فقد كان يصف سماءها أو سحابها أو فلاتها أو حيوانها ، ولكنه لم يجمع هذه الأجزاء في إطـار كلي . ولا شك أن لإعطاء هذه النظرة الكلية المركبـــة ، والصورة الشاملة الجامعة أثراً في التفكير وفتحاً جديداً في آفاقه . وقد ورد في القرآن تعابير تختصر هذه الصورة وتعبر عنها بإيجاز وذلك مثل (ملكوت السموات والأرض) ومثل (العالمين) . ويلاحظ أن الطبيعة الموصوفة في هذه الآيات ليست الطبيعة العربية خاصة وحدها وإنما هي طبيعة عامة ففيها البحار والأنهار والسبل ولم تذكر فيها الصحراء وخصوصياتها .

إن هذه الصورة التي أعطتها الآيات الكريمـة عن الطبيعة خالية من الأساطير متحررة منها لا تجد فيها أثراً لآلهة البحر

أو الرياح التي تجدهـا عند اليونان ولا تجد فيها - لا في هذه الآيات ولا في غيرها - ما كنت تجده أحياناً في أدب العرب في الجاهلية من الغول والعنقاء والهامة وما اليها .

٣) وقد عرضت الطبيعة في هذه الآيات على أنها موضوع للتأمل ومحل للتفكير فقد أشارت عدة آيات منها بعد عرض جانب من جوانبها إلى أنها دلائل وعلامات يستعين بها الفكر، فقد ختمت آية النبات بقوله تعالى (إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) وختمت آية الأفلاك بقوله (إن في ذلك لآية لقوم يعقلون) وختمت آية الأرض وما خلق عليها من أنواع بقوله (إن في ذلك لآية لقوم يذّكرون) ، وختمت الأيات كلهـا بالسؤال الداعي إلى التفكر والتذكر (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ؟) . وكذلك كان شأن الطبيعة في كل مكان ذكرت فيه في القرآن فمشاهدها الموصوفة فيه وحوادثهـا المذكورة متبوعة أو مسبوقة بمـا يفيد معنى النظر والرؤية والسماع،أو مقترنة بما يشير إلى التفكير أو العقل أو ما يرادف هذه الألفـاظ وذلك في مثل قوله تعـالى (قل أنظروا ماذا في السموات والأرض) وقوله (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهـار إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) وقوله (وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون) وقوله (إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار

والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) .

٤) وقد عرضت الطبيعة في هذه الآيات متصلة الأجزاء مطردة الحوادث ، فنزول الماء يعقبه نبات الزرع (ينبت لكم به الزرع ...) ، والنجوم مسخرات وفقاً لما ورد في مكان آخر من الكتاب الكريم (وكل في فلك يسبحون) . ويلاحظ أنه لا يدخل في أجزاء الطبيعة وحوادثها إلا ما هو من نوعها وجنسها . واطراد حوادثها ظاهر في آيات أخرى في غير هذه السورة كآيات نزول المـاء من المزن والسحاب المتراكم وتكون الينابيع تحت الأرض وتعاقب الليل والنهار وما إلى ذلك من الحوادث المذكورة في القرآن والتي تشعر الإنسان باطراد هذه الحوادث واستمرارها وانتظامها .

٥) والطبيعة في هذه الآيات موضع انتفاع ومحل استثمار . فللإنسان في الانعام دفء ومنافع ، وفي الخيل والبغال والحمير وسائل للركوب ، وله في الماء شراب ، وفي النبـــات ثمرات نافعة ، وفي الشمس والقمر فوائد ، والبحر يأكل من حيتانه ، ويسير فيه السفن ليبتغي من فضل الله . إن في وصف الطبيعة بهذه الأوصاف وعرض هذا الجانب النافع منها تحريضاً على استغلالها والانتفاع بها وتسليطاً للإنسان عليها بعد أن كان الإنسان يخاف من الطبيعة بل يعبد بعض أجزائها .

٦) والطبيعة أخيراً زينة وجمال فللإنسان في منظر قطمان الانعام الغادية والرائحة جمال وله في الخيل زينة وله في لآلىء البحر حلية ومتاع .

٧) والطبيعة بعد هذا كله مع أنها موضع تفكر وانتفاع واستمتاع ليست هي الغايه وإنما هي نقطة انطلاق للوصول إلى خالقها ومبدعها ، فالإنسان عن طريق التفكر والتأمل في آفاقها يصل إلى مبدعها ، وعن طريق الانتفاع بفوائدهـــا يشكر مسخرها والمنعم عليه بها ، وعن طريق التمتع بجمالها وزينتها يتذكر مبدع جمالها .

قيمة الفكرة ونتائجها :

لقد نقلت هذه الفكرة عن الطبيعة والخالق العرب مــن نوع من التفكر المجزأ المشوب بالوثنية والخرافة إلى نوع آخر من التفكير الشامل المتحرر من الخضوع للطبيعة . وكان لهذه الفكرة نتائج عظيمة جداً من الناحيتين الفكرية والعملية في الإطار العربي والإنساني وكانت نقطة الإنطلاق للتفكير العلمي المبني على التجربة واستخراج سنن الطبيعة . وكان لها أثر عميق في توجيه الحضارة الإنسانية وجهة جديدة كما كانت دافعـــاً لاستثمار الطبيعة والانطلاق في آفاقها الواسعة .

طريقة العرض :

إن طريقة عرض الفكرة والتعبير عنها في هذه الآيات هي

طريقة العرض المباشر من غير واسطة سواء أكانت الواسطة مثلاً مضروباً أو قصة أو مجازاً . وذلك باستعراض أجزاء الكون وأقسام الطبيعة وأنواع المخلوقات وتعدادها واحداً بعد آخر مع الوصف الموجز في بعض الأحيان كقوله تعالى (ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون) وكقوله في وصف البحر وصفاً موجزاً جامعاً لمنافعه (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) وفي قوله (وترى الفلك مواخر فيه) قوة تمثيل واستحضار للصورة وذلك بسبب استعمال فعل الرؤية وجعله في صيغة المخاطب واستعمال صيغة المضارع للحال ثم تصوير الفلك ماخرة في البحر واستعمالها بصيغة الجمع (مواخر) للدلالة على السفن الكثيرة ..

إنها لمشاهد مكثفة جمع بعضها إلى بعض وتوالت وتتابعت. ويلاحظ الانتقال من المشهد الحسي إلى الفكرة المعنوية (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ..) وتنتهي بقوله تعالى(إن ربكم لرءوف رحيم) ويغلب على طريقة العرض الروح المنطقية بما فيها من تسلسل وارتباط واستنتاج ، فالمشاهد الموصوفة وأنواع المخلوقات المعروضة تنظمها فكرة واحدة ترتبط بها من أول آية إلى آخر آية وهي فكرة الاله الخالق . ففي كل آية فعل يربطها به : (خلق السموات .. خلق

الإنسان ... والانعـــام خلقها ... هو الذي أنزل .. ينبت لكم ... وسخر لكم ... مسخرات بأمره ... وما ذرأ لكم في الأرض ... وهـــو الذي سخر البحر ... ولتبتغوا من فضله ... وألقى ... أفمن يخلق ...) إن فكرة الاله الخالق المسخر المنعم تنظم الآيات كلها وتربطها ربطاً محكماً حتى تنتهي بها إلى نتيجتها المنطقية (إلهكم إله واحد) .

الآيات وتركيبها :

يشعر قارىء هـــذه الآيات بسلاسة في نغمتها الهادئة ، وبساطة في تركيبها ، وحلاوة في جرسها ، ولننظر في تركيب بعض هذه الآيات لنعرف السر في سلاستها والسبب في جمالها :

١ – أتى أمر الله فلا تستعجلوه . سبحانه وتعالى عما يشركون
– خلق السموات والارض بالحق . تعالى عما يشركون
– خلق الإنسان من نطفة . فاذا هو خصيم مبين
– والانعام خلقها . لكم فيها دفء ومنافع . ومنها تأكلون .
– هو الذي أنزل من السماء ماء . لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون
– أموات غير أحياء . وما يشعرون أيان يبعثون

يلاحظ في هذه الآيات انقسام كل آية منهـــا إلى فقرتين متواليتين: الأولى منها في الأكثر جملة فعلية جارية على المألوف

المعتاد من تركيب الجمل والأكثر في الثانية أن تكون جملة اسمية ، والغالب أن تتعادل الفقرتان في وزنها أو تتقاربا ، على أن تنتهي الثانية بفاصلة هي الأكثر الواو والنون . وقد تتألف الآية من عدة فقرات متوالية متوازنة منسجمة كقوله تعالى (وهو الذي سخر البحر – لتأكلوا منه لحماً طرياً – وتستخرجوا منه حلية تلبسونها – وترى الفلك مواخر فيه – ولتبتغوا من فضله – ولعلكم تشكرون) .

وفي كل فقرة من الفقرات التي تتألف منها الآية حسن توزيع للمدود والحركات يجعل نغمتها هادئة متساوية الأجزاء ظاهرة الانسجام والاتساق موافقة فى نغمتها الهادئة الطويلة بعض الطول مع موضوعها الفكري .

والجمل في هذه الآيات كلها خبرية وأكثرها فعلية وليس فيها إلا الجملة الاستفهامية الواردة في الآية السابعة عشرة (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون) .

وإن القارىء ليشعر بما في تركيب الآيات من إحكام ولو أراد أن يزيد أو ينقص من الألفاظ لاختل الكلام واضطرب فلا زيادة في الألفاظ ولا نقصان . وكل كلمة هي في المكان المناسب لها سواء من حيث المعنى أو من حيث جمال اللفظ وحلاوة الجرس . هذا بالإضافة إلى التعابير الجميلة التي احتوتها الآيات والتي جاءت جدتها من اقتران لفظين، والجمع بين كلمتين كهذه التعابير (تعالى عما يشركون – بشق الأنفس – لتبتغوا

من فضله – قلوبهم منكرة – مسخرات بأمره – خصيم مبين – قصد السبيل – الفلك مواخر) .

واحتوت الآيات على صور متقابلة وهذا ما سماه علماء البلاغة طباقاً إذ كان مفرداً ومقابلة إذا تعدد ، وذلك مثل قوله تسرون وتعلنون ، وأموات وأحياء ، ويخلق ولا يخلق ، وتريحون وتسرحون .

الألفاظ المفردة :

لو نظرنا في الألفاظ التي تتألف منها هذه الآيات لوجدنا منها عدداً كبيراً يدل على معان حسية عامة (الإنسان . نطفة . الانعام . دفء . أثقالكم . بلد . الخيل . البغال . الحمير . زينة . السماء . ماء . شراب . شجر . الزرع . الزيتون . النخيل . الأعناب . الثمرات . الشمس . القمر . النجوم . الأرض . ألوان البحر . لحم طري . حلية . الفلك . رواسي . أنهار . سبل) وهذه الألفاظ وحدها في دقة دلالتها على الأشياء الحسية في الطبيعة تعطينا صورة عن الموضوع في سعة أفقه وفي نقطة انطلاقه .

ويلاحظ أنها في مجموعها تصور البيئة الطبيعية العامة لا البيئة العربية وحدها كما يلاحظ أنها تدل على أنواع وأجناس لا على جزئيات .

ويمكن أن نضيف إليها كلمات أخرى من نوعها ، وردت

في هذه الآيات ولكن بصيغة الأفعال وذلك مثل (تأكلون . تريحون . تسرحون. تحمل. بالغيه -لما فيها من معنى الفعلية- لتركبوها . انزل . تسيمون . ينبت . لتأكلوا . وتستخرجوا. ألقى . تميد . تهتدون - بمعنى تستدلون) .

وهذه الأفعال تدل كذلك على معان حسية عامة .

وإلى جانب هذه الألفـاظ الحسية ألفاظ معنوية تدل على معان عقلية أو مفاهيم خلقيـــة أو مشاعر عاطفية : بالحق . خصيم . مبين . منافع . تعالى . جمال . تعلمون . حــائر . يتفكرون . يعقلون . يذّكرون . تشكرون . نعمــة الله . تسرون . تعلنون . يشعرون . منكرة . مستكبرون .

ومن هذه الألفاظ ما يتعلق بالله

الله . سبحانه . تعالى . عباده . اتقون . خلق . رؤوف رحيم . هداكم . سخر . ذرأ . فضله . نعمـــة الله . غفور رحيم . يعلم . إله واحد .

إن الألفاظ التي تتألف منها هذه الآيات الكريمة أكثرها ، إن لم تكن كلها ، تدل على المفاهيم العامة في الحياة : الماديـة منها والمعنوية، العقلية والعاطفية، العملية والخلقية. ولو نظرنا إليها باعتبارها ألفاظـاً مفردة لعرفنا المستوى الفكري الذي تنقلنا إليه ، وما تثيره من مشكلات الحياة والوجود .

وقد استعملت ألفاظ متعددة للمعنى الواحد إما للتنويع

كاستعمال يتفكرون ويعقلون ويذكرون، واما للدقة كاستعمال خلق وسخر وذرأ ولكل منها موضع فالخلق عام ، والتسخير خلق مع توجيه في وجهة معينة . والذرأ الخلق مع التوزيع والتكثير .

ليس في هذه الآيات كثير من المصطلحات الاسلامية الجديدة لأنها عالجت موضوعاً وخاطبت أناساً لم يقبلوا بعد الدعوة الجديدة ومن هذه المصطلحات :

التقوى والآخرة وفيها قليل من الألفاظ الدينية وهي ألفاظ كانت معروفة عند العرب مثل (الله . الملائكة . الشرك . ربكم . عباد الله) .

وَاللهُ أَنْزَلَ مِنَ السَمَاءِ مَاءً فَأَحيَا بِهِ ٱلأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ . وَإِنَّ لَكُمْ فِي ٱلأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُم مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنَاً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ وَمِن ثَمَرَاتِ ٱلنَّخِيلِ وَالأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ . وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ ٱلجِبَالِ بُيُوتاً

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ . ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ .

موضوع الآيات :

إن في هذه الآيات التي وردت في سورة النحل عودة إلى موضوع الآيات الاولى من السورة. وهي تتصل بها على ما بينها من آيات طويلة فصلت بين هذه وتلك ، وتحدثت هذه الآيات الفاصلة عن المشركين وعقائدهم وتضمنت رداً لآرائهم ، وجدلاً معهم ، وبياناً لعاقبة أعمالهم وإنذاراً لهم .

إن الفكرة الناظمة لهذه الآيات والمشتركة بينها هي قدرة الله في خلق شيء من أشياء تختلف عنه في النوع ، أو خلق أشياء مختلفة جداً في الصفات من شيء واحد وأصل واحد .

فالآية الأولى تتضمن حياة الارض ونمو النبات بالماء وهو مختلف عنها جنساً ووصفاً . وفي الآية الثانية خروج اللبن الخالص السائغ للشرب من بين نوعين آخرين مختلفين أشد الاختلاف وهما الدم والفرث وهو ما يكون في المعدة من الطعام بعد تميز الغذاء منه .

والآية الثالثة فيها خروج نوعين من المواد من التمر والعنب وهما مختلفان متباينان أحدهما نافع مفيد وصف في الآيـــة بكونه رزقاً حسناً والآخر هو المـادة المسكرة (السَّكَر) وقد خرجا من مادة واحدة على تباينهما من الصفات .

والآية الرابعة تتضمن وصفاً للنحل وما يخرج منها مـــن العسل ، فالعسل كما تصوره الآية مما يجمعه النحل من الثمرات وهو كذلك مختلف عن النحل وعن الثمار والأزهار .

إن غاية هذه الآيات الخمسة بيان قدرة الله في خلق الطبيعة ، وهذه بعض جوانبها وأمثلة منها . وكأن هذه الآيات أخذت جانباً مجملاً مما ورد في الآيات السابقة وبسطته وفصلته وعرضته هذا العرض المنطقي المتسلسل الجميل الرائع .

طريقة العرض :

في هـــذه الآيات عرض جميل لبعض مظاهر الطبيعـــة وحوادثها ، واختيار لجوانب وأمثلة منهـا . ومما يقوي هذا العرض طريقة الخطاب ، فلم يكن الكلام عاماً مجرداً ، ولكنه موجه إلى مخاطب وهو الإنسان بوجـه عام (وإن لكم .... نسقيكم .... تتخذون . وأوحى ربك) . وموضوع الخطاب متصل بحياة الإنسان : شرابه وطعامـه وهو لذلك مشوق له ودافع إياه إلى التفكير .

ومما أكسب هذه الآيات جمالاً ما تضمنته من توجيه الخطاب

إلى النحل ، هذا الوحي الالهي وهو الالهام الغريزي وقد عبر عنه بخطاب وكلام موجه إلى النحل (اتخذي من الجبال بيوتاً ... ثم كلي ... فاسلكي) وقد تضمن الخطاب نفسه وصفاً للطريق التي تسلكها النحل في حياتها فيه شيء من الصور التفصيلية لحياة النحل وينتهي الخطاب بوصف العسل نفسه (شراب مختلف ألوانه . فيه شفاء للناس) .

إن جمال هذه الآيات ناشيء عن موضوعها ، وعن صلة هذا الموضوع بحياة الإنسان ومنافعه ، وعن عرضه عرضاً تصويرياً واضحاً ، على ما فيه من ايجاز في الوصف ، وعن طريقة الخطاب الموجه للانسان والخطاب الإلهي الموجه إلى النحل ، ووصف تطوافها ومساكنها أو خلاياها .

الأسلوب اللفظى :

لهذه الآيات الكريمة طريقة في تركيبها تنسجم فيها النغمة مع الفكرة ويتعانق فيها الجرس الموسيقي مع المنطق الفكري. ولو نظرنا في طريقة تأليف الآيات لوجدنا الآيات الثلاثة الأولى تتألف كل واحدة منها من ثلاث فقرات متلاحقة متصلة تؤلف كل واحدة منها قطعة لها نغمتها المستقلة .

والله أنزل من السماء ماء – فأحيا به الأرض بعد موتها – ان في ذلك لآية لقوم يسمعون – وان لكم في الأنعام لعبرة : – نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم – لبنا خالصا

سائغاً للشاربين – ومن ثمرات النخيل والأعناب – تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً – ان في ذلك لآية لقوم يعقلون .

إن لكل فقرة في كل آية نغمة موزونة يشعر تاليها بانسجامها وسلاستها ، وان لم تكن كل فقرة جملة مستقلة من الوجهة النحوية ، لحسن توزع المدود والحركات ما بين كلماتها وحروفها . وتنتهي الفقرة الثالثة في كل آية بهذه الفاصلة الحلوة التي ينتهي الكلام عندها ويستقر الفكر فيها في نتيجته وهي المنتهية بهذه الألفاظ (يسمعون – للشاربين – يعقلون) .

وأما التركيب النحوي فقد اختلف من آية إلى أخرى ففي الأولى جملة اسمية أشبه بالفعلية . يعقبها جملة فعلية وكلاهما لا خروج فيه عن التركيب المألوف وتنتهي بجملة اسمية مؤكدة تعبر عن حقيقة مقصودة ثم تبدأ الثانية بجملة اسمية تشبه ما انتهت به الآية الأولى موضوعاً وتركيباً وتنتهي بجملة فعلية طويلة قدمت فيها المجرورات وأخر المفعول لإبرازه والوقوف عنده :

نسقيكم – مما في بطونه ، من بين فرث ودم – لبناً خالصاً سائغاً للشاربين وأما الآية التالية فقد بدأت بجملة فعلية قدم فيها المجرور :

ومن ثمرات النخيل والأعناب – تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً ثم ختمت بجملة اسمية تعبر عن حقيقة عامة بصيغة التأكيد .

وأما آية النحل ففيها من حسن التقسيم ومن التقديم والتأخير وتنوع التأليف وكثرة الفقرات ما يجعلها بالإضافة إلى موضوعها وطريقتها في الوصف وقوة التمثيل عن طريق مخاطبة النحل ما يجعلها في غاية الروعة والجمال فكرة وتعبيراً وجرساً .

وأوحى ربك إلى النحل – ان اتخذي من الجبال بيوتاً – ومن الشجر ومما يعرشون – يلاحظ هنا وضع لفظ بيوتاً بين المجرورات وجعل المجرور الأخير في صيغة الفعل المنتهي بالواو والنون (مما يعرشون) .

ثم كلي من كل الثمرات – فاسلكي سبل ربك ذللاً – وينتهي هنا الخطاب ثم يجري الكلام على صيغة الغائب على طريقة الإلتفات :

يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه – فيه شفاء للناس .

ثم تختتم بمثل ما ختمت به الآيات السابقة : إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون .

الألفاظ :

ولو صنفنا ألفاظ هذه الآيات لوجدناها كآيات النحل الأولى تكثر فيها الألفاظ الحسية الدالة على أجزاء الطبيعة وأنواع الموجودات (السماء، ماء ، الأرض ، الأنعام، بطونه ، فرث، دم ، لبن ، النخيل، الأعناب، سكر ، رزق حسن ، النحل،

الجبـــال ، بيوت ، الشجر ، يعرشون ، الثمرات ، سبل ، شراب، ألوان ، شفاء) وإلى جانبها ألفاظ معنوية ذات دلالة عقلية : (يسمعون ، يعقلون يتفكرون – عبرة) .

وينظم هذه الألفاظ جميعـــاً فكرة الإله الخالق القادر المتجلية في ألفاظ قليلة تخللت الآيات (والله أنزل – فاعـل نسقيكم – وأوحى ربك – سبل ربك) .

هذا كله إلى جانب ما في الألفاظ من دقة في الدلالة وجمال في الاختيار وحلاوة في الموقع والجرس .

خلاصة ونتيجة :

لقد عبرت آيات سورة النحل التي درسناها وهي الآيات (١ – ٢٣) و (٦٥ – ٦٩) عن فكرة أساسية من أفكار الدعوة الجديدة التي قدمها القرآن إلى العرب ، الذين خاطبهم أولاً ، وإلى الناس كافة من ورائهم .

وهذه الفكرة الأساسية هي من هذا البناء الجديد ركنه الأساسي . وخلاصتها أن أمـــام الإنسان عالماً من الحقيقـة هو هـذا الكون العظيم ، أو الطبيعة ذات الآفاق الواسعة ، وهو عالم له حقيقته ، وله نظمه وحوادثه وميادينه وآفاقه ، وسنته ونظمه .

وهو عالم جدير بالتأمل والتفكر، قابل للانتفاع والاستثمار،

ومحل للتمتع بجماله وزينته. وإن وراء هذا العالم خالقاً أبدعه، وقدر له خططه وسننه ، وربط ما بينه وبين الإنسان .

فالإنسان متصل بالكون وهو جزء منه وله أن يفكر فيه وأن ينتفع به ويسخره لمنافعه ، وهو والكون معاً متصلان بالله ، ينتهيان إليه ، ويقعان تحت قدرته وعلمه .

وكان عرض هذه الأفكار عرضاً منطقياً هادئاً يخاطب العقل أكثر مما يخاطب العاطفة ويسلك طريق الواقع لا الخيال، وكذلك كان التعبير والأسلوب مناسباً للموضوع ، متفقاً مع الطريقة المنطقية ، محكم التركيب ، قليل المجاز ، هادىء النغمة ، طويل النفس نوعاً ما .

وهذه صفات تخالف ما يزعمه الزاعمون في وصف الأسلوب المكي من مخاطبة العاطفة والإكثار من الصور الشديدة المخيفة ، وسلوك طريق الترغيب والترهيب وقصر الجمل وشده الفواصل وقوة الجرس . هذا مع أن السورة نزلت آياتها هذه في العهد المكي وخاطبت أهل ذلك العهد من العرب الذين كانوا لا يزالون على وثنيتهم ومفاهيمهم الجاهلية .

إنه أسلوب من أساليب العهد المكي وموضوع من أوائل موضوعاته ولكنها كذلك الحكمة الإلهية في مخاطبة الناس وأخذهم بالتدرج وتنويع الخطاب لهم وقلب مفاهيمهم وتغيير عقولهم بهذه الأداة التي يعرفونها وهي اللغة بألفاظها وحروفها

ولكنها الصياغة الإلهية المعجزة التي كان لها في عقولهم وحياتهم وفي الحضارة الإنسانية ما كان من تأثير عميق بعيد المدى .

في الآيات وما بعدها من السورة وحدة في الموضوع وهدف ترمي إليه وفكرة تنتهي إليها وشعور تبعثه في النفس من مجموع صورها ومعانيها .

وفيها من إحكام تركيب الجمل وتأليف الآيات واطرادها على نسق واحد مع تنويع ألوان التركيب وارتفاع هذا التركيب الى المستوى الذي يوازي ما تضمنه من المعاني والفكر ما لا عهد للعرب به قبل ذلك وما يجعلنا نقف أمام بلاغة جديدة وفن من القول كان لهما أثر كبير في رقي اللغة العربية وجعلها أداة صالحة جميلة للتعبير عن مفاهيم الحضارة ومختلف الأفكار وكذلك كان الشأن في المفردات التي تألفت منها الجمل والآيات في اختيارها من كلام العرب اختياراً يجمع فيها دقة الدلالة وحسن الموقع في الكلام وجمال الجرس .

سورة يوسف (١)
قصتها وعبرتها

إن لسورة يوسف موقعاً خاصاً في النفوس، فلطالما اشتاقت إلى سماعها مرة بعد مرة، ولطالما تفتحت القلوب لها، والآذان لنغماتها الحلوة ، وإن لها نغماً علوياً خاصاً بها ، وإنك لتحس فيها بيد القدر الإلهي تحرك الحوادث ، ولترى فيها الإنسان يريد ويقدر ومن فوقه عناية إلهية غالبة تبلغ من هذا الإنسان ما تريد لا ما يريد ، وتصل بالأمور إلى عواقبها ونهاياتها المرسومة المقدرة .

طالما هزت هذه السورة المشاعر والعواطف وحركت الضمائر ؛ ذلك أن السور المكية كلها دعوة الى الله وتوحيده ، بل إنها لتصل ما بين عقل الإنسان وقلبه وحقيقة الوجود

---

(١) آثرنا ألا ننقل نص السورة هنا فعلى القارىء أن يعود إلى قراءتها بإمعان في القرآن الكريم ليتمكن من متابعة الموضوع الذي كتبناه حولها في هذه الصفحات .

الكبرى التي هي الله الخالق القادر المنعم الرحيم . ولكن كل واحدة من هذه السور تبرز وجهاً من هذه الحقيقة ومعنى من معانيها التي لا تنتهي ، وتسلك بالإنسان إلى هذه الحقيقة سبيلاً خاصة ، فمن هذه السور مـــا تطلع الانسان الى عظمة الله وقدرته على الخلق ، ومنها ما تكشف له عن رحمته وفضله ، وسبيلها إلى ذلك جولة في عالم الكون ، في نجومه وأفلاكه ، وأرضه وأنوائه ، ونباته وحيوانه أما هذه السورة – سورة يوسف – فإنها لا تجول بنا في عالم الكون الخارجي بل في عالم الحياة الإنسانية بحوادثهـــا ووقائعها ومشاعرها وعواطفها وأفكارها وعقائدها .

إن الله تعالى يقص فيها قصة حياة الإنسان أحسن القصص إنهـــا قطعة من الحياة بعروقها النابضة ومشاعرها المتأججة ونوازع الخير والشر فيها . إننا نرى فيها أنفسنا ، ولكن نرى مع ذلك يد القدر ونحس أثرها فينا وفي أعمالنا . إننا نراها تخط في الحوادث مصيرنا وتبلغ بنا الغايات المقدرة . إنها تفتح أمامنا أفق القدر لنجعل ارادتنا من إرادة الله، منفذة لقضائه منسجمة مع غايات قدره التي هي الخير المحض ، فنجمع بذلك بين الطاعة والإرادة والعمل والتفاؤل بالمستقبل . ذلـــك هو السبب الذي يجعل لسورة يوسف هوى خاصاً في نفوسنـــا . وإنها ليست من نوع الخيال المصنوع ولا القصص الذي تقلد فيه الحقيقة ، بل إنها الحقيقة نفسها (ما كان حديثـاً يفترى

ولكن تصديق الذي بين يديه...) تلك هي طريقتها وذلك هو سبيلها إذ تأخذ بعقولنا وقلوبنا نحو الله . إن هذه السورة تكشف لنا النقاب عن سر الإرادة والقدر وعن العناية الإلهية التي تخفى إلا على من أتاه الله حساً مرهفاً وإيماناً عميقاً من وراء حوادث الكون وأسبابها الظاهرة وعواطف الانسان ومقرراته وتصمياته. وذلك ما أبصره وأحس به يعقوب عليه السلام من أول القصة فانكشفت له الحقيقة الكبرى فصبر وآمن وترقب لطف الأقدار وصنيع العناية ، أضف إلى ذلك عذوبة نغمات هذه السورة وحلاوة نسجها ، كيف لا وناظم كلامها وصانعها هو صانع الحياة نفسها . وانك إذ تقرأ هذه السورة أو تستمع إلى من يقرأها لتحس بموسيقى عذبة علوية ترافق ما يتراءى لك فيها من صور الحياة الإنسانية وما تقرأه من ورائها من أحكام القضاء وسطور القدر .

* * *

افتتحت السورة بهذه الحروف المقطعة الثلاثة (الر) التي تريك من الكلمات موادها الظاهرة وتخفي عنك سر ظهورها قرآناً بألفاظ عربية تفهم وتعقل كما تخفي الحوادث الظاهرة في القصة من ورائها سر القدر الإلهي . فهنا أسرار الحياة التي استأثر الله بها وكشف عن بعض مظاهرها وآثرها ، وتلك

آيات الكتاب المبين مفصحة عن قدرة الله ودالة على وجوده وعلى لطفه ورحمته وعنايته .

* * *

وقد أورد الله الآية الثانية « إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » واصفاً القرآن بكونه عربي اللغة والأداء ليستطيع المخاطبون الأولون بالدعوة – وقد كانوا عرباً – أن يفهموه ويعقلوه ليبلغوه للناس كافة (ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أأعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) « فصلت » . وإلى هـــذه الفكرة نفسها تشير الآية الأخرى من سورة الشورى (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً لتنذر أم القرى ومن حولها وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه) وذلك لتبليغ هذه الرسالة إلى البشر جميعاً (وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً) .

* * *

أما قصة يوسف التي هي موضوع السورة وقوامها فقد استغرقتها كلها وهي تزيد على مائة آية ، عدا نحو عشر آيات في آخرها تضمنت عبرتها ومرماها .

ولقد كانت هذه القصة رائعة خصبة غنية تمثل الحياة بما فيها من وقائع وحوادث متسلسلة مترابطـــة ومؤامرات

ومصادفات ومفاجآت وعواطف ودوافع وآراء بشرية وأقدار إلهية . وهي أطول قصة من كتـــاب الله تضمنت مشاهد كثيرة متوالية :

١ – أولها يمثل طفولة يوسف إذ يقص رؤياه على أبيـــه يعقوب الآيات (٤ – ٧) .

٢ – تآمر اخوة يوسف عليه لقتله أو إبعاده وما اتفقوا عليه بعد المذاكرة وإقنـــاع أبيهم بإرسال يوسف معهم . الآيات (٨ – ١٤) .

٣ – تنفيذ المؤامرة بيوسف وتغطيتها وتلبيس الأمر على يعقوب . الآيات (١٥ – ١٨) .

٤ – التقاط يوسف وخروجه من البئر. الآيات (١٩–٢٠)

٥ – يوسف في مصر في بيت العزيز وتبدأ في حياة يوسف مأساة جديدة دوافعها الاغراء والاغواء وسببها العفة والاباء . الآيات (٢١ – ٣٤) .

ويكون صراع نفسي ينتهي بانتصار الإرادة على الغريزة والإيمان على الشهوة وصراع بين رجل وإمرأة ينتهي موقتاً بانتصار الافتراء والانتقـــام ويكون يوسف بنتيجته رهين السجن .

٦ – يوسف في السجن ، ويبدو لنا هنا وجـــه جديد

ليوسف ذلك هو الداعية الى الله والموهوب الذي كشف الله عن بصيرته فاستشف المستقبل المغيب من خلال الرؤى والأحلام . الآيات (٣٥ – ٥٣) .

٧ – يوسف في بلاط الملك بعد خروجه من السجن وتوليه خزائن مصر . الآيات (٥٤ – ٥٧) .

٨ – ويتلو ذلك مشاهد متعددة فيها كثير من الحوادث والأزمات تنتهي بلقائه لإخوته وتعارفهم وانتقالهم جميعاً مع أبيهم إلى مصر حيث تصل الحوادث الى نهايتها وتفتح أبواب الفرج على مصراعيها : خلاص من الموت والسجن وجمع للشمل وتبوء لمنصب من أعلى مناصب الدولة ؛ وينتهي ذلك بتعبير يوسف عن شكره لله على نعمه كلها . الآيات (٥٨ – ١٠١) .

* * *

لقد احتوت القصة أزمات وعقداً كثيرة متنوعة وكان الله دوماً هو الذي يفرج الكرب ويحل العقدة ويخرج يوسف بعنايته من الأزمة .

لقد مر يوسف بأربع أزمات شديدة وجمعت له فيها ضروب من الإبتلاء :

أولها : حين كان ملقى في البئر بلا معين ولا وسيلة للنجاة.

وثانيها : حين مدت له شباك الاغراء بالشهوة والغواية بالمرأة .

وثالثها : حين تنفيذ المؤامرة الثانية ودخوله السجن .

ورابعها : انفصاله عن عشيرته وأهله وأبيه وانقطاع ما بينه وبينهم .

وقد كان الله بلطفه وعنايته يخرجه من هذه الحلقات كلها ظافراً منتصراً حتى كانت الخاتمة إذ غدا مجتمع الشمل متبوئاً أعلى المناصب شاعراً بمنة الله عليه شاكراً لأنعمه وذلك مـــا عبر الله عنه حكاية على لسانه بقوله :

« وقال يا أبت هذا تأويل رؤياي ... » إلى قوله تعـــالى « وألحقني بالصالحين » .

وقد احتوت القصة ضروباً شتى من عناصر الحياة البشرية وأنواع العواطف الطيبة والخبيثة :

من تحاسد الاخوة ونية الإجرام ، الى عاطفـــة الأب الشفوق وحذره ؛ ومن الصبر على المصائب والوقوع تحت تأثير اغراء الغريزة والشهوة ، الى الإنتصار في الصراع بين قـــوة الغريزة وردع الضمير والثبات على الإيمان والشكر على النعم .

كل ذلك تضمنته القصة في مشاهدها وحوادثها .

أما فلسفة القصة العميقة فتتجلى في الإيمـــان العميق بالله الذي ينصر الحق على الباطل ولو طال أمده ، والثقـــة بهذا الانتصار ، ومواجهة أزمات الحياة المختلفة بصبر وثبـــات وإيمان ، والتفـــاؤل حتى في الشدة وترقب الفرج من الله في

الأزمات ، والإيمان أن نية الخير والعزم عليه لا يولد في النهاية إلا خيراً فلا يأس ولا قنوط في الحياة ، والإيمان صبر وجهاد وثقة وتفاؤل .

وتتمثل هذه الفلسفة المؤمنة المتفائلة المناضلة في كثير من آيات السورة وكثير من مناسبات القصة :

كقول يعقوب : « فصبر جميـــل والله المستعان على ما تصفون » .

وقوله ثانية بمناسبة استبقاء شقيق يوسف في مصر : « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل ، عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً انه هو العليم الحكيم » .

وقوله شاكياً حزنــــه الى الله وطالباً الى أولاده التفتيش والبحث عن أخويهم : «إنما أشكو بثي وحزني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون ، يا بَنيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله إنه لا ييأس من رَوْح الله إلا القوم الكافرون » .

وقول يوسف : « قد منّ الله علينا ، إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع اجر المحسنين » .

الشخصيات التاريخية في القصة :

للشخصيات التاريخية الذين ورد ذكرهم في سورة يوسف

وكان لهم مكان في القصة صور نفسية تبدو من خلال حوادثها وهذه سماتهم وصفاتهم منتزعـــة من هذه الحوادث التي تؤلف القصة :

يعقوب : هو الأب الشفيق الحـــذر ، الحزين الصابر ، المترقب دوماً لرحمة الله ، والمتفائل ثقة بالله بانتصار الحق على البـــاطل ، المستشف للفرج من وراء حجب الغيب في أشد الأزمات .

يوسف : هو المضطهد المظلوم المتآمر عليه في مرحـــلة طويلة من حياته في سلسلة من المصائب والمآزق ولكنه مؤمن بالله صابر على بلائه في الضراء منتظر لرحمته دائماً شاكر لنعمته في السراء ، إيمـــانه بربه غالب على هوى نفسه وشهواتها ، عصمه الله من جموح الغريزة . وهو محسن لا يضمر للناس إلا الخير وداعية الى الايمان بالله حتى وهو في السجن وصف بأنه من المحسنين والمخلَصين وبصفة الصدّيق .

أبناء يعقوب : حاسدون متآمرون

امرأة العزيز : تمثل الشهوة الغالبة والكيد والمكر ولكن ضميرها يستيقظ بعد حين .

نساء أخريات : يشاركن امرأة العزيز فيعواطفها ويؤيدن موقفها في الكيد والمكر ويعذرنها في غلبة الشهوة والهوى .

خاتمة السورة : (الآيات ١٠٢ — ١١١) .

وقد اختتمت السورة بالدعوة الى الاعتبار بعاقبة القصة ومآلها وما احتوته من معنى عميق من معاني الحياة ، وهو أن الله يخلق من العسر يسراً ومن الضيق فرجاً وأن القدر الإلهي من وراء تصرفات الإنسان وأعماله وإن على الانسان المؤمن أن ينتظر الفرج دون أن ييأس من رَوح الله فلا ييأس من رَوح الله إلا القوم الكافرون به وعليه أن يصبر في ساعات الشدة وألا يسترسل مع الهوى والشهوة ويترقب الظفر وانتصار الحق على الباطل . وقد كان محمد (عليه الصلاة والسلام) وصحبه في أشد الحاجة إلى هذا المعنى وهم فيمرحلة الشدة والاضطهاد أمام خصوم عنيدين أقوياء . ولذلك جاءت خاتمة السورة في صيغة الخطاب للرسول الكريم صلوات الله عليه (ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ...) داعية له ألا ييأس لقلة المؤمنين المستجيبين لدعوته (وما اكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين) مشيرة إلى الفرج القريب والنصر المرتقب (حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذِبوا جاءهم نصرنا ...) مؤكدة أن حوادث هذه القصة حقيقة واقعة وليست ضرباً من الخيال (ما كان حديثاً يفترى) .

* * *

خلاصة :

لقد جمعت قصة يوسف صوراً من الحياة الواقعية بما فيها

من دوافع الخير ونوازع الشر من عواطف الحنين والشفقة ، والحسد والكيد ، والتآمر والإجرام ، والشهوة الجامحـــة والضمير الرادع ، والإيمان القوي والتفاؤل العميق والثقة بالله ، وصوراً من الصراع بـــين الغـــريزة والواجب الخلقي ، والهوى والإيمان .

فيها مشاهد من حياة الأسرة وحياة الطبقة العالية المترفة وحياة السجن والسجناء والمناصب العالية والقوافل التجارية والمبادلات الاقتصادية . فيها وقائع وأفكار وأزمات ومواقف ومشاهد ونفسيات وكل ذلك لتصل القصة إلى غايتها والحوادث المسرودة إلى هدفها ونتيجتها وصدق الله العظيم : (لقد كان في قَصصهم عبرة لأولي الألباب ما كان حديثاً يُفترى ولكن تصديقَ الذي بين يديه وتفصيلَ كل شيء وهدى ورحمةً لقوم يؤمنون) .

عناصر الفكر والفن في الكتاب العربي المبين

اذكر اني قرأت كلمة لأحد كبار نقاد الأدب الفرنسي في معرض تعريفه للأدب الأصيل المسمى بالفرنسية Classique خلاصتها ان روائع الادب الاصيل في أمة هي تلك التي تجلى فيها – في فترة من فترات تاريخ أدبها – الاصيل من خصائصها، والنقي الصافي من صفاتها ، والخالد الباقي من روحها ، والرفيع من مزاياها ، فلا تزال في تاريخ أدب تلك الأمة منهلا يرتاده القاصدون ومرتعاً ينتجعه الرواد النابغون .

والقرآن الكريم هو أصدق ما ينطبق عليه هذا القول في تاريخ الأدب العربي . ففي أرض العرب نزل من معارج القدس ، وعلى واحد من أوسطهم نسباً ، وأزكاهم روحاً ، وأفصحهم بياناً ، وأنبلهم خلقاً ؛ وبلغتهم فصلت آياته ، وإياهم خاطب أول ما خاطب (إنا أنزلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) . وقد شرح الإمام الشاطبي الغرناطي اللخمي ، من أفذاذ القرن الثامن للهجرة ، هذه الفكرة شرحاً وافياً دقيقاً في كتابه المعروف بالموافقات .

ولم تتجاوب في التاريخ القديم والحديث أمة مع كتاب تجاوب العرب مع القرآن . فبعد أن اصطفى الخالد من مكارمهم ، وأبطل الشائن من عاداتهم ، وزكّى ما عندهم من استعداد ، وأنار لهم طريق الهداية بعد حيرة ، واستجابوا له فأصبح الكتاب الذي من خلاله ينظرون إلى الكون والحياة والوجود ، وفي جوّه الفكري والروحي يعيشون ويحيون ، وبمفاهيمه في الحياة يأخذون . ولذلك لم يكن القرآن كتاباً فلسفياً ولا نظريات فكرية ، بل كتاباً امتزج بحياتهم ، ومدرسة حية عاشوا في جوها ، ورأوا فيه مراحل الدعوة التي قاوموها ثم أخذوا بها ، ورأوا فيه أحزابهم ومواقفها من الدعوة ونماذج من شخصياتهم . والقرآن على أنه وحي نزل من السماء ليصور حياة أفضل ويدعو إليها ، وقد وصف حوادث حدثت في الأرض فكان واقعياً ومثالياً في آن واحد .

وان التجاوب بين الكتاب العربي الحي وبين العرب واقع تاريخي لا يمكن أن ينكر . فإذا أراد العرب أن يعرفوا أنفسهم ويكشفوا عن ذواتهم ، وأن يبلغوا غاية امكانياتهم ومنتهى مداهم في الفكر والخلق والروح ، حتى يحققوا الشخصية الإنسانية المثالية فطريق ذلك أن يعرفوا القرآن ويفهموه ويتمثلوه ، بعد أن حال بينهم وبينه القصور عن فهم لغته وروحه والإنحراف أحياناً في هذا الفهم عصوراً طويلة .

إن البحث في القرآن يمكن أن يتناول الناحية الفكرية

فيدرس ما أثار القرآن من موضوعات ومسائل ، وما بث من عقائد واختط من خطط ، ويمكن أن يجمع من ذلك ما تفرق في سوره في مختلف المناسبات والحوادث وتصنف بحسب أنواعها وأصنافها ، فيخرج الباحث من ذلك بفكرة عامة عن نظرة القرآن واتجاهه في كل ميدان من ميادين الحياة .

ويمكن أن ينظر إلى القرآن من ناحية فنه وطرائق تعبيره – فقد عرف القرآن بفن خاص انفرد به – فتدرس الوسائل الفنية التي كانت فيه مظهراً للمعاني والأفكار ، والفنون الادبية التي تفرقت في سوره وآياته ، وطرائق القرآن في صوغ الكلام وتركيبه ، وفي نظمه وترتيبه وما يتكون من ذلك من نغمات موسيقية تتجاوب مع الموضوع ، وما يتألف منه القرآن من مفردات لغوية لم تكن فيه على انها وحدات فكرية فحسب بل وحدات فنية أيضاً لها خصائصها الفنية كما ان لها خصائصها الفكرية والمنطقية .

ان كلا من البحثين الفكري والفني ، يحتاج إلى أكثر من بحث لجمع أطرافه وتقديمه خالصاً سائغاً للناظرين ، ولست لأدعي اني أفعل ذلك في بحث واحد ، بل اني أرى سلوك هذه الطريقة نفسها ، أي تقسيم البحث إلى فكري وفني ، يضيع الكثير من روعة الأثر القرآني . فإن التحليل إلى الأجزاء يضيع دوماً خواص التركيب ، (وان إعمال المبضع في الحقيقة الحية يفقدها الحياة نفسها التي هي أخص خواصها ، وان كان

لا غنى للعلم عن التحليل والتشريح لمعرفة الحقيقة) .

وليس القرآن في واقعه التاريخي وعند أهله وأصحابه الذين نزلت آياته بينهم نظريات فيلسوف أو خيال شاعر ، (ولكنه كتاب حياة) ، فلا ينفصل فيه الفكر عن الفن ولا الفن عن الفكر . لقد فهمه العرب ودخل في وعيهم على أنه كل لا أجزاء ، وتأثروا في آن واحد بفكره وفنه مجتمعين غير منفصلين . فالفكر يسجل الحقيقة ويعبر عنها ، وقد ينشئها ويدفع إلى تحقيقها ؛ والفن يصور الجمال ويعبر عنه وقد ينشىء الجمال ويبدعه . والحقيقة والجمال في الحياة والطبيعة ملتقيان ، فالشجرة والنهر والزهرة والشوكة والجبل والسهل والشمس والقمر والنجوم والفراشة كلها حقائق من حقائق الكون ولكل منها جماله .

والقرآن كالطبيعة تلتقي فيه الحقيقة والجمال ويتلازمان ، ويقابل ذلك التقاء الفكر والفن المعبرين عن الحقيقة والخيال . وليعذرني القارىء إذا عنيت بدراسة هذا اللقاء أكثر من عنايتي بدراسة الفكر القرآني والفن القرآني منفصلين ومن تفصيل القول فيهما وتقديم دراسة شاملة لكل منهما .

لقد تضمن القرآن دعوة إلى تصور معين للوجود وإلى سلوك طريق يتناسب مع هذا التصور ، ولذلك تجلى الفكر القرآني في تصوير حقائق الوجود أولاً كما هي في واقعها وفقاً لنظرته الجديدة ثم في الحقائق التي دعا إلى إيجادها وإنشائها

وصوّرها ليطلب إلى الناس أن ينتقـلوا إليها وهي الحقائق الأخلاقية والسلوكية ، وهذه نماذج من تلك الحقائق كما عرضها القرآن :

الطبيعة والكون

إن مشاهد الطبيعة في القرآن كثيرة جداً ، وهي إذا جمعت وجدت شاملة لجميع أجزائها وأجرامها ، وإن الإنسان ليدهش حين ينتقل من أطلال امرىء القيس ورسوم عمرو بن كلثوم ووحوش الصحراء إلى هذه الطبيعة الواسعة الآفاق التي يعرضها القرآن ويصفها . وأكتفي بعرض مشاهد منها ، فهذه مثلاً بعض مناظر البحر . (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً ، وتستخرجوا منه حليـة تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) (النحل) صورة تعج بالحركة وتفيض بالحياة ، فيها الإنتفاع والاستثمار (لتأكلوا منه لحماً طرياً) ، وفيها اللذة والجمال (وتستخرجوا منه حلية تلبسونها) وفيهـا الحركة التجارية (وترى الفلك مواخر فيه) وفيها الفكرة الخلقيـة (ولعلكم تشكرون) وفيها الفكرة الإيمانية (وهو الذي سخر البحر) .

وهذا مشهد آخر تختلط فيه تقلبات البحر بعواطف البشر : (وهو الذي يسيركم في البر والبحر ، حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتهـا ريح عاصف ، وجاءهم الموج من كل مكان ، وظنوا أنهم أحيط بهم دعوا الله

مخلصين له الدين لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين . فلما أنجاهم إذا هم يبغون في الارض بغير الحق ، يا أيها الناس إنما بغيكم على أنفسكم ...) (يونس) ويكاد يكون هـــذا المشهد قصة كاملة بعناصرها الأساسية ، وخاصة بعقدتها وما فيها من عواطف بشرية .

ثم هذه الصورة الرائعة التي تنقلنا بعيداً عن جزيرة العرب إلى البحار الشمالية : (والذين كفروا أعمالهم كسراب بِقِيعَة... أو كظلمات في بحر لجّيٍّ يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ، ظلماتٌ بعضها فوق بعض ، إذا أخرج يده لم يكد يراها ...) (النور) .

وهذا المشهد الأخير : (ومن آياتـــه الجوار في البحر كالأعلام ، إن يشأ يُسكِن الريح فيظللن رواكد على ظهره ، إن في ذلك لآيات لكل صبّار شكور . أو يوبقْهن بمـــا كسبوا ، ويعفو عن كثير) (الشورى) .

ولننتقل إلى صفحة أخرى من صفحات الطبيعة ، إلى عالم النبات ، لنشهد صورة الحياة في حركتها وانتقالهـــا ، وفي مراحلها وأطوارها ، وفي جمال ألوانها : (ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فسلكه ينابيـــع في الارض ، ثم يخرج به زرعاً مختلفاً ألوانه ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يجعله حطاماً ، إن في ذلك لذكرى لاولي الألباب) (الزمر) .

وهذه الصورة الأخرى المشابهة : (ألم تر أن الله يزجي

سحاباً ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله) (النور).

وهذه الحديقة التي عملت فيها يد الإنسان ترتيباً وتنسيقاً : (واضرب لهم مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً ، كلتا الجنتين آتت أُكُلَها ولم تظلم منه شيئاً ، وفجرنا خلالهما نَهْراً وكان له ثمر ...) (الكهف) .

وهذه الحدائق التي هي من صنع الله : (أم من خلق السموات والارض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها) (النمل) .

ولننتقل إلى القبة الزرقاء لنشهد صوراً أخرى من صور الطبيعة بنجومها وأفلاكها وحركتها وانتظامها : (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون، والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم ، والقمرَ قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم ، لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون) (يس) .

وفي آية أخرى : (خلق السموات والارض بالحق يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ألا هو العزيز الغفار) (الزمر) .

وإليكم صوراً من صور الطبيعة تشير إلى التركيب والتحول : (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الارض بعد

موتها إن في ذلك لآية لقوم يسمعون . وإن لكم في الانعام لعبرة نسقيكم مما في بطونها من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين. ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سَكَراً ورزقاً حسناً إن في ذلك لآية لقوم يعقلون . وأوحى ربك الى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذُللاً يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون) « النحل » .

النبات نتيجة تفاعل الماء والتراب والبذور ، واللبن مستخلص من مجموعة من المواد الغذائية استخرج منها ايضاً الدم والفرث ، والتمر والعنب يستخرج منها أنواع شتى منها الضار والنافع ، والعسل خلاصة من مجموعة من الثمار والازهار تفاعلت في جهاز النحل . كل هذه المنتجات نظمتها الآيات في سلك واحد وجمعتها في باب واحد . وهذه صورة شاملة لعناصر متعددة متنوعة جمعت مكثفة في آية واحدة :

(ان في خلق السموات والارض، واختلاف الليل والنهار، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض، لآيات لقوم يعقلون) « البقرة » .

ان الطبيعة كما عرضها القرآن في جميع هذه الآيات السابقة

كانت فكرة او حلقة من سلسلة التفكير الموصل الى ما وراء الطبيعة ، الإلـه الخالق المدبّر ، وان كانت في ذاتهـا صوراً جميلة وجمالها آت من الحياة التي تفيض بها ..

والطبيعة في مواطن أخرى من الكتـاب الكريم قطع تزيينية ، هي بمثـابة الإطار التزييني والمرتسم الخلفي والجو الطبيعي للفكرة المعروضة وذلك لقوله تعـالى : (والضحى والليل اذا سجى) وقوله (والليل اذا يغشى والنهـار اذا تجلى) وقوله (والشمس وضحاها والقمر اذا تلاها والنهـار اذا جلاّها والليل اذا يغشاها) وقوله (والليـل اذا عسعس والصبح اذا تنفس) على أن هذه الصورة التزيينية تلقي على الفكرة المعروضة ظلالاً مناسبة لها .

إن صورة الطبيعة كثيرة مبثوثة في الكتاب العربي المبين، وهي طبيعة واسعة عامة غير خاصة بالبيئة العربية وصحرائها وآكامها ووحوشها فترى فيها (جنات ألفافاً) و (حدائق ذات بهجة) و (رواسي شامخات) و (أنهاراً وسبـلاً) ، وفيها (الجوار المنشآت في البحر كالأعلام) ، وفيهـا (عين جارية) وفيها من الحيوان ما يدب على الارض وما يمشي على بطنـه وما يمشي على رجلين وما يمشي على أربـع ، ويخلق الله غيرها ما يشاء .

الانسان والانسانية

ومما تضمنه القرآن الكريم من حقائق الوجود تلك الحقيقة

الكبرى، أعجوبة الاعاجيب وآية الآيات ، ألا وهي الانسان.

لقد تضمن القرآن أفكاراً كثيرة عن الانسان ، ليس ذلك إنسان مكة أو يثرب ، أو انسان الجزيرة القرشي أو الخزرجي، ولكنه الانسان ، وذلك هو الإعجاز كل الإعجاز . لقد ذكر القرآن الانسان في أصل خلقته ومراحلها « يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث » ، « هو الذي خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم يخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ثم لتكونوا شيوخاً » (غافر) ، وقال مشيراً الى المساواة الاصلية بين البشر « إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » ، وذكر القرآن ما ُحبب الى نفوس البشر من الشهوات في هذه الحياة : « ُزيّن للناس حب الشهوات من النساء والبنينَ والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث ، ذلك متاع الحياة الدنيا » .

ووصف القرآن الكثير من غرائز الانسان وعواطفه وصفاته النفسية : « ان الانسان ليطغى ان رآه استغنى »[1] « وتحبون المال حباً جماً » ، « ان الانسان ُخلق هلوعاً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً » . ومن أجمع ما وصفت به الحياة الانسانية الفردية والاجتماعية ما جاء في

---

(١) أي بسبب ان رأى نفسه مستغنياً بالمال او مستغنياً عن الله بظنه .

الكتاب المبين في قوله : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينــة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد كمثل غيث أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ثم يكون حطاماً وفي الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله ورضوان وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور » (الحديد) .

والآية كما ترى محكمة الفكرة دقيقة ، تذكر دوافع الحياة الفردية في التمتع بالحياة ودوافع الحياة الاجتماعية في التفاخر والتكاثر في الأموال والنفوس . وهل تخرج المجتمعات حتى اليوم عن هذه الدوافع الاقتصادية والعددية ؟ وقد أعقبت الفكرة بصورة ترمز الى النهاية المفزعة للبداية الجميــلة مع مقارنة بين الحياتين الفانية والخالدة .

والمتتبع للكتاب العربي المبين يستطيع أن يخرج بصورة شاملة للانسان ونفسيته .

أما الصور الاجتماعية التي عرضها القرآن فكثيرة وقـــد أوردها في معرض الاعتبار والعظة وبيان عواقب الظلم والفساد والاسترسال في الترف والنعيم ، وذلك كهذا القول الرائع في تصوير عاقبة المجرمين : (كم تركوا من جنات وعيون ، وزروع ومقام كريم ، ونعمة كانوا فيهــا فاكهين ، كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والارض ومــا كانوا منظرين) (الدخان) .

وقوله في وصف عاقبة المجتمع الظالم : (فكأيِّنْ من قرية أهلكناها وهي ظالمة ، فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مَشيد . أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها ، أو آذان يسمعون بها ، فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور) (الحج) .

وان طريقة القرآن في نقد الحياة الاجتماعية الفاسدة والدعوة الى الحياة الاجتماعية الفاضلة تقوم من الوجهة الفنية على القصص وضرب الأمثال وعلى الجدل والمناقشة وعلى عرض نماذج بشرية يعرضها في معرض السخرية والتهكم والنقد .

إن طريقة القرآن في القصص طريقة خاصة به ؛ انه ينتقي أبرز حوادثها وأشدها صلة بالعبرة المقصودة ويغفل التفاصيل الزائدة والجزئيات التي لا فائدة منها ، ويجعل الافكار التي يريد تلقينها متضمنة فيها ثنايا حوار أو جدل أو خطاب أو دعاء ؛ لا يغفل الواقع الانساني ولكنه يرتفع منه الى المثل الاعلى . ولأضرب على ذلك مثلاً قصة نوح التي أوردها القرآن الكريم وأنزلها الله على نبيه محمد ﷺ ليسمعها قومه وليلقنهم هذه الأفكار :

١ – إن الرسول بشر يبلغ رسالة وليس إلَـهاً يصنع العجائب ، وهو لا يطلب على رسالته أجراً .

٢ – العبرة للايمان لا للوجاهة والمال .

٣ – الرابطة الحقيقية هي رابطة الفكرة والعقيدة لا رابطة النسب .

٤ – على مُبلّغ الرسالة أن لا ييأس ولا يقنط فالحق لا بد أن ينتصر .

وإليكم القصة كما وردت في سورة هود من القرآن الكريم :

« ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه إني لكم نذيرٌ مبينٌ . أن لا تعبدوا إلا الله إني أخاف عليكم عذاب يوم اليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما نراك إلا بشراً مثلَنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا باديَ الرأي وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين . قال يا قومِ أرأيتم ان كنت على بينة من ربي وآتاني رحمة من عنده فعُمِّيَتْ عليكم أنلزِمُكموها وأنتم لها كارهون . ويا قومِ لا أسألكم عليه مالاً ان أجريَ إلا على الله ، وما أنا بطارد الذين آمنوا انهم ملاقو ربِّهِم، ولكنّي أراكم قوماً تجهلون . ويا قوم من ينصرُني من الله ان طردتهم أفلا تذكَّرون . ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا

أقول إني مَلَك ولا أقول للذين تزدري أعينكم لن يؤتيهم الله خيراً الله أعلم بما في أنفسهم إني اذاً لمن الظالمين. قالوا يا نوحُ قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعِدُنا إن كنت من الصادقين. قال إنما يأتيكم به الله ان شاء وما أنتم بمعجزين. ولا ينفعكم نصحي ان أردت أن أنصح لكم ان كان الله يريد أن يُغويَكم، هو ربّكم وإليه تُرجعون. أم يقولون افتراه قل ان افتريته فعليّ اجرامي وأنا بريء مما تجرِمون. وأوحيَ الى نوحٍ أنه لن يؤمن من قومك إلا من قد آمن فلا تبتئس بما كانوا يفعلون. واصنع الفلك بأعيننا ووحينا ولا تخاطبني في الذين ظلموا انهم مغرَقون. ويصنعُ الفلك وكلما مرّ عليه ملأٌ من قومه سخِروا منه قال ان تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون. فسوف تعلمون من يأتيه عذاب يخزيه ويحل عليه عذاب مقيم. حتى اذا جاء أمرُنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كلٍّ زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل.

وقال اركبوا فيها بسم الله مَجريها ومُرساها ان ربي لغفور رحيم . وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوحٌ ابنه وكان في معزل يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين . قال سآوي الى جبل يعصمني من الماء قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحـــال بينهما الموج فكان من المغرقين . وقـــال يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضي الأمر واستوت على الجودِيّ وقيـــل بعداً للقوم الظالمين . ونادى نوح ربه فقال رب ان ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين . قال يا نوح انه ليس من أهلك انه عمل غير صالح فلا تسألني ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب اني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين » (سورة هود : ٢٥ ـــ ٤٧).

وقد وردت هذه القصة كغيرها متكررة في القرآن بأشكال متنوعة مختلفة في البسط والايجاز في طريقـــة العرض . ومن أوجز ما وردت به هذه القصة نفسها قوله تعالى : « إنا لما

طغى المـــاء حملناكم في الجارية لنجعلها لـكم تذكِرة وتَعِيَها أذنٌ واعية » .

من القصص الواردة في الكتاب الكريم قصة فرعون وموسى وقصة هارون ، وقد جمعتـــا في سورة واحدة سميت سورة القصص ، ولم تخرج السورة عن القصتين اللتين تؤديان بنا الى عبرة مشتركة وفكرة واحدة وهي أن نفوذ السلطان ونفوذ المال كلاهما زائل ، فلا ألوهية للسلطان وصاحبه ولا ألوهيـة للمال ومالكه ، ولذلك ختمت السورة بما يناسب هذا المعنى:

« ولا تدع مع الله إلهاً آخر لا إله إلا هو له الحكم وإليه ترجعون » .

ومن أجمل مشاهد هذه السورة مشهد الرعاة المزدحمين على البئر مع ماشيتهم ومن مسافة منهم فتاتان مبتعدتان بسبب الزحام تنتظران وتطوُّع موسى لخدمتها وانتهاء ذلك المشهد بالزواج ويكاد يكون قصة صغيرة في مجموع القصة .

« ولما توجَّه تلقاء مدْيَنَ قال عسى ربي أن يهديني سواء السبيل. ولما ورَد ماء مدين وجد عليه أمّةً من الناس يسقون ووجد من دونِهمْ امرأتين تذودان قال : مـا خطبكما قالتا لا نسقي حتى يُصدِرَ الرّعاءُ وأبونا شيخ كبير . فسقى لهما ثم تولى الى الظل فقال ربِّ إني لما أنزلت إليَّ من خير فقير . فجاءته إحداهمـــا تمشي على استحياء قالت ان أبي يدعوك

ليجزيَكَ أجر ما سقيت لنا فلما جاءه وقص عليه القصص قال لا تخف نجوت من القوم الظالمين . قالت إحداهما يـــا أبَتِ استأجره إن خير من استأجرت القويُّ الأمين . قال إني أَريد أن أنكِحَكَ إحدى ابنتيَّ هاتينِ على أن تأجُرَني ثمانيَ حجَج فإن أتممتَ عشراً فمن عندك وما أريد أن أشُقّ عليك ستجدني إن شاء الله من الصالحين. قال ذلك بيني وبينك أيّما الأجلين َقضيتُ فلا ُعدوان عليّ والله على مـــا نقول وكيل » (القصص ٢٢ — ٢٨) .

وأما قصة يوسف فقد بلغت من الروعة مكاناً قصياً، وذلك لما تضمنته من أنواع العواطف البشرية الخيرة والشريرة، الواقعية والمثالية ، من الحسد والمكر ، والتآمر والإجرام ، والعطف الأبوي والحذر والحزن والحنين والشوق ، والغريزة الجنسية والترفع المثالي والإباء ، ولما فيها من العقد القصصية المتعاقبة فلا تنحل عقدة حتى تنعقد أخرى ، ولما فيها من تنوع المشاهد والبيئات ، من البداوة الى الحضارة ، ومن السجن الى قصر الملك ، وأعظم من ذلك كله ما فيها من فلسفة القدرة والإيمان العميق بنصرة الله للحق ولو طـال أمد الباطل ، وفي ذلك التفاؤل العميق بقضاء الله الذي يتجلى في نفسية يعقوب رغم مظاهر الحزن الشديد ، فاستمع إليـــه حين جاءه بنوه عند منصرَفهم من مصر يعتذرون عن إبقاء العزيز لأخيهم ويؤكدون له ذلك :

« قال بل سوّلت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميلٌ عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً انه هو العليم الحكيم . وتولى عنهم وقال يا أسفى على يوسف وابيضّت عيناه من الحزن فهو كظيم . قالوا تالله تفتؤُ تذكرُ يوسفَ حتى تكونَ حَرَضاً أو تكون من الهالكين . قال إنما أشكو بثّي وحُزْني الى الله وأعلم من الله ما لا تعلمون . يا بنَيّ اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا من رَوْح الله انه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون » – يوسف : ٧٣ – ٨٧ .

أما طريقة الأمثال المضروبة في القرآن فهي طريقة شائعة فيه ، وهي في الوقت نفسه فكرية وفنية ، فهي من الوجهة الفكرية نوع من القياس والحكم بالنظائر والأشباه ، ومن الوجهة الفنية نوع من التشبيه الموسع يحتوي على صور جذابة كقوله :

« واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعاً . كلتا الجنتين آتت أكُلها ولم تَظلِم منه شيئاً وفجرنا خلالهما نهراً . وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالاً وأعزُّ نفراً . ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة ولئن رُدِدتُ الى ربي لأجدن خيراً منها منقلباً . قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من

تراب ٍ ثم من نطفة ثم سوّاك رجلا . لكنا [1] هو الله ربي ولا أشرك بربي أحداً . ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله ان ترَنِ أنا أقل منك مالاً وولداً . فعسى ربي أن يؤتِيَنِ خيراً من جنتك ويرسل عليهـــا حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقاً. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً . وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفّيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحداً. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصراً . هنالك الولاية لله الحق هو خير ثواباً وخير عقباً ». (الكهف: ٣٢ – ٤٤) .

وإليك بعض النماذج البشرية التي يعرضها القرآن ومنهـــا صورة الفقراء المتعففين :

« للفقراء الذين احصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض ، يحسبهم الجاهل أغنيـــاء من التعفف ، تعرفهم بسيماهم ، لا يسألون الناس الحافاً » – البقرة .

وإليكم مشهد الجـاهلي الذي كان واقعاً بين تأثير الشرف الموهوم يدفعه الى وأد بنته والعاطفـــة الابوية وتنتهي الآية بتقبيح ما يصنع :

---

(١) تكتب بالألف ولا تلفظ بل تقرأ بالنون المشددة من غير مد وأصلها على ما قيل لكن أنا ثم حذفت الالف وأدغمتا.

« وإذا بُشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كَظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هُونٍ أم يدسه في التراب ؟ ألا ساء ما يحكمون ! » (النحل) .

وفي القرآن شخصيات عديدة جديرة بأن تستخرج لما تمثله من نماذج بشرية عامة ، منها شخصيات تاريخيــة معروفة ، خيِّرة كالأنبياء، وشريرة كفرعون وقارون ، ومنها شخصيات مجردة ترمز في الأصل الى شخصيات معاصرة للرسول الكريم عليه صلوات الله كالوليد بن المغيرة المعني بقوله :

« ذرني ومن خلقت وحيداً [1] ، وجعلت له مالاً ممدوداً وبنين شهوداً ، ومهّدتُ له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيدَ كلا إنه كان لآياتنا عنيداً ، سأرهقه صَعوداً [2] إنه فكـّر وقدّر ، فقُتل كيف قدر ، ثم قـُتل كيف قــدر [3] ، ثم نظر ، ثم عبس وبسر [4] ، ثم أدبر واستكبر ، فقال ان هذا إلا سحر يؤثر [5] ، ان هذا الا قول البشر ، سأصليه سقر [6] ، ومـا

(١) اي لا مال له ولا ولد .
(٢) سأكلفه صعود عقبة شاقة أي انه سيعذب عذاباً شديداً .
(٣) الجملتان فقتل .. ثم قتل .. دعائيتان معترضتان .
(٤) بسر : أي قطب وجهه فأصبح كالحاً تظهر آثار الغضب والحقــد والحسد على صفحات وجهه .
(٥) أي ينقل ينقله عن غيره .
(٦) جهنم .

أدراك ما سقر » (المدثر) وأبي جهل عمرو بن هشام المقصود في قوله :

« أرأيت الذي ينهى عبداً اذا صلى . أرأيت ان كان على الهدى . أو أمر بالتقوى . أرأيت ان كذّب وتولى . ألم يعلم بأن الله يرى . كلا لئن لم ينته لنسفعن بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندع الزبانية » (العلق) .

إن القرآن حين صور لنا الحقيقة القريبة المحيطة بنـــا التي تجلت في الطبيعة والانسان أراد أن ينقلنا الى الحقيقة البعيدة ، الحقيقة اللانهائية . انه دوماً يسير بنـــا بفكرنا وتصورنا ، وبعاطفتنا وشعورنا ، من الطبيعة الى مبدعها ، ومن الانسان الى فاطره ، بذلك يبدأ والى ذلك ينتهي . وقد ارتفع القرآن في مفهوم الإله الخالق المقدر الى مستوى لم تبلغـــه نظريات الأديان ولا الكتب الدينية الاخرى ، ولم تلم الفلسفات النظرية إلا ببعض وجوهه ونواحيه ، ويضيق بنا الوقت عن الحديث في هذه الناحية من الفكر القرآني .

وينتقل بنا القرآن كذلك من الحقيقة الحاضرة والحيـاة الراهنة وعالم الشهادة الى حقيقة آجلة بعيدة وعالم مغيب وحياة أخرى هي امتداد لا نهائي لهذه الحياة ويسميها النشأة الأخرى والدار الآخرة ، والآخرة في مقابل النشأة الاولى والحيـــاة الدنيا الاولى .

ان أولى المسائل التي أثارها القرآن في النفس الانسانية وفي نفوس الذين خاطبهم أول ما نزل ، وكبرى مسائل الحياة هي

مسألة المصير ، مصير الانسان والحياة . لقد أثار في الانسان القلق من المصير وربط بمسألة المصير أكبر مسألة أخلاقيــة بل حيوية هي مسألة المسؤولية الانسانية . لقد أثار أشد الاثارة تصور المصير والشعور بالمسؤولية معاً ، واتخذ من هذا الموضوع باباً لولوج النفس البشرية وأساساً لاصلاحهـــا ، وتذرع لهز النفوس والضمائر ولتفتيح الأذهان والعقول بحجج المنطق ودوافع العاطفة ومثيرات الخيال ووسائل الفن ، فاذا انتهى من استقرار فكرة المسؤولية العظمى «مسؤولية الانسان عن جميع أعماله» ودوافعه النفسية في الحياة ، وأمام الله في حيـــاة اخرى ، وتأكد من تمكن هذه العاطفة وتملك هـذا الشعور انتقل الى الاصلاح الاجتماعي والى رسم الخطط للحياة الفردية والاجتماعية الخلقية والتشريعية والدينية .

ولذلك جاءت جميع السور المكية الأولى ضاربة على هذا الوتر ، ملحة عليه كل الالحاح بأساليب متنوعة وأشكال شتى ، واليكم نموذجاً لبعض السور التي تعرض هذه الفكرة :

« بسم الله الرحمن الرحيم . والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً . فأثرْن به نقعاً . فوسطْن به جمعاً . ان الانسان لربه لكنود . وانه على ذلك لشهيد . وانه لحب الخير لشديد . أفلا يعلم اذا بُعثر ما في القبور . وحُصّل ما في الصدور . ان ربهم بهم يومئذ لخبير » (العاديات) .

نحن أمام مشهد من مشاهد الغزو والاعتـــداء في سبيل التسلط والكسب ، نحن في صميم المشهـــد وفي جو المعركة :

كوكبة من الخيل تعدو بفرسانها والشرر يتطاير من حوافرها، والغبار يثار من حولها ، في صبيحة مبكرة ، وكأنك تسمع وقع الحوافر وحمحمة الخيل في موسيقى مطردة ونغمة متواترة: « والعاديات ضبحاً ، فالموريات قدحاً ، فالمغيرات صبحاً ، فأثرن به نقعاً ، فوسطن به جمعاً » .

هكذا تنتهي هذه الصورة المثيرة ، ولا سيما في البيئة العربية ، وهي في الواقع صورة لكل عدوان مهما تبدل شكله، صورة للانسان في حبه للتسلط على غيره والاستيلاء على ماله ، ولذلك فإن الآيات التالية بعدها تحلل نفسية الانسان بإيجاز ، وبموسيقى تختلف نغمتها وفاصلتها الأخيرة : « ان الانسان لربه لكنود . وانه على ذلك لشهيد . وانه لحب الخير لشديد » .

ثم تقفز به الآيات بوثبة رائعة الى ما بعد الحياة وبنغمة جديدة أخرى تعرض عليه بل تفرض على خياله صورة مخيفة: « أفلا يعلم اذا بعثر ما في القبور . وحصل ما في الصدور » .

صورة حية رهيبة ، بعثر ما في القبور ، وصورة نفسية عميقة ، تحصيل ما في الصدور ، وتنتهي السورة بالفكرة التي هي الغاية ، لتستقر في النفس وفي الفكر والقلب بنغمة هادئة: « ان ربهم بهم يومئذ لخبير » .

ان القرآن بعد أن انتهى من اقرار فكرة المسؤولية والايمان بالحساب في حياة آخرة وبالعودة الى حكم الله الذي

يبدأ الخلق ثم يعيده ، يرسم الحقيقة الاخلاقية بعد أن رسم الحياة الواقعية ، يرسم الحقيقة كما يجب أن تكون ، ويضع نظاماً جديداً لقيم الحياة هو ثورة على النظام القديم القائم على تقديم شرف النسب وصلة القرابة ووجاهة المال ونفوذ السلطان وتفضيل اللذة وتقليد الآباء ومظاهر التدين . ويستبدل به نظاماً يقوم على أساس المسؤولية والعمل النافع للمجتمع والاخلاص لله والمساواة بين عباده وإقامة العدل بينهم وفعل الخير والدعوة اليه واتخاذ المال والقوة والسلطان والمتعة وسائل لخدمة قيم أعلى منها هي الحق والعدل والخير والبر .

واليكم هذه الآية المعبرة عن كثير من هذه المعاني:

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكنُ ترضونها أحب اليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين » .

وهذه الآية الأخرى التي توسع معنى العبادة والعمل الصالح:
« ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الاعراب ان يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه ، ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصَب ولا مخمصة[1] في سبيل الله ولا يطؤون

---

(١) الجوع .

موطئاً يغيظ الكفار ولا ينالون من عدوّ نيلاً إلا كتب لهم به عمل صالح، إن الله لا يضيع أجر المحسنين. ولا ينفقون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون وادياً إلا كتب لهم ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (التوبة) .

وهـذه الآيات التي تستبدل بمفهوم الدين الضيق المبني على مظاهر العبادات مفهوماً أوسع :

« أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، لا يستوون عند الله ، والله لا يهدي القوم الظالمين . الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله وأولئك هم الفائزون » (التوبة) .

أما الكلام على خصائص القرآن الفنية وطرائقه في التعبير وتركيب الكلام وما استعمله من الالفاظ والكلمات فباب واسع لا يتسع له المجال .

وأما الموسيقى المتناسبة مع الموضوع والنغمة المسايرة للفكرة فقد بلغت في القرآن الغاية المثلى حتى غدا القرآن فكراً مصوراً موسيقياً لا ينفصل فيه الفكر عن الفن ولا الفن عن الفكر .

* * *

وقد استطاع العرب عن طريق القرآن ان يطلوا على الحقائق الخالدة ، وأن يشرفوا على الانسانية كلها وعلى

قوافلها عبر العصور ، فلم يعد القرآن يعبر عن حقيقةزمنية محلية ، ولا عن حقيقة خاصة بأمة من الأمم ، بل غدا معبراً عن الحقيقة الانسانية الخالدة وعن الجمال الخالد ، وأصبح العرب دعاة انسانية وحملة رسالة .

إن واجبنا لنحقق الإنسانية فيشخصيتنا ونطبع الانسانية بطابعنا أن نتعرف عن طريق القرآن الى شخصيتنا والى الانسانية معاً ، وأن نتمثله فهماً ووعياً ، وأن نخرج به عن السطحية العامية وعن الانحراف الأعجمي . إن دراسة القرآن تصلح أساساً للتربية القومية والفكرية والأدبية ، وينبغي أن يتخذ القرآن أساساً للقيم الفكرية والمقاييس الأدبية والفنية لإيقاف تيار الأدب الشعوبي الذي يغزونا من كل مكان ويذيب شخصيتنا ويقتل خصائصنا ويشوه مزايانا ويفقدنا مكانتنا في الحضارة العالمية .

القرآن عربي الخطاب إنساني الرسالة

إن العرب في هذا العصر بعد أن مروا بمراحل اليقظة والوعي لأرضهم ثم لقوميتهم وصلوا الى المرحلة التي يتحررون فيها كذلك من نفوذ المبادىء الأجنبية من ديمقراطية الرأسماليين المزعومة الى مادية الشيوعيين . وبذلك بلغوا مرحلة الوعي لمبادئهم وأصبحوا بحاجة لملء الفراغ الحادث بطرد الافكار والفلسفات الأجنبية . وأنهم اليوم على مفترق الطرق يخشى عليهم العثار اذا لم يستقوا من النبع الأصيل الذي التقت فيه فطرتهم الانسانية ووحي السماء او فيض القدرة الإلهية التي تجلت في الكتاب العربي المعجز . ولكنّ بيننا وبين الكتاب العربي المبين حجباً كثيفة بنتها العصور والعادات والأفهام الغريبة حتى أصبح الكتاب الذي أقام في العالم ثورة شاملة لجميع نواحي الحياة أوراداً تتلى وألفاظاً تلتمس نتائجها بمجرد التلاوة .

ولنستطيع فهم القرآن فهماً عميقاً يتجاوب مع نفوسنا يجب أن نبعث الجو العربي الذي نزل فيه ونتفحص نفسية العربي

القديم ونقف حيث وقف ونعيد التجربة حية في نفوسنا ، لا أقصد تجربة الوحي بانتقال الرسول الكريم ﷺ ولكن تجربة التلقي والتجاوب النفسي لتكون تجربة حية. إن هذه التجربة يجب أن تبدأ منا ثم تنتقل الى غيرنا لأن القرآن نزل بلغتنا .

ان تمييز الأمم بالأرض او العرق لم يعد مميزاً يتناسب مع ارتقاء الامم وتقدمها وسيرها نحو الانسانية ولم يعد مقبولاً من الوجهة الأخلاقية وهو تمييز أقرب الى الابتدائية . أما المميز الحقيقي فهو الروح المعنوية والصيغة الإنسانية والمبدأ والعقيدة ، ويقاس رقي الأمم بمقدار ما تحقق في نهضتها من مبادىء إنسانية ، وبمقدار اتساع مداها الحيوي في المجال الإنساني ، وبمقدار تقدمها نحو الهدف الإنساني . فاذا أردت أن تقارن بين الروس والأمريكيين والانكليز والعرب فقارن بين الفهم المادي الجاف للروابط الإنسانية في المادية الماركسية والسلوك النفعي العملي للديمقراطية الأمريكية والاستعلاء العنصري المستخفي وراء الديمقراطية البريطانية والمثالية الإنسانية المتجلية فيالقرآن ورسالته كما فهمه العرب ودانوا به.

إن العرب يرون في القرآن المنبع الأصيل والمنهل الصافي ومجمع القوى المختزنة الكامنة التي تفجر في أنفسهم إنسانيتهم وتبعث روح الجهاد سبيل تحقيقها ولذلك كان دوماً هدف الشعوبيين أعداء العرب والمبادىء الإنسانية ، وكانت خطتهم في العصور القديمة وفي عهود الاستعمار الحديث إقصاء العرب

عن القرآن ومفاهيمه وتغطية ذلك بستار العلمانية او التقدمية او التحرر ، ولكنه التحرر من الذات والانسلاخ من الجلد وانتحار الانسان بيده . ذلك ان القرآن بالنسبة الى العرب معدن الاصالة ومصدر التجديد المتصل بالماضي والمستند الى الانسانية الصحيحة والمستمد من مصدر الوجود .

لقد كان للقرآن ولا يزال أثر عالمي ، ولذلك فإن العودة الى فهمه فهماً صحيحاً وإعادة تجربته النفسية سيكون لها من جديد تأثير عالمي وسيكون لذلك أثر حاسم في تاريخ الحضارة ونتيجة هامة في صراع المبادىء والمذاهب . وهذا الدور الحاسم انما يقوم به العرب أنفسهم وهم أقوى من غيرهم على القيام به كما كانوا بالأمس . وان منعهم عن القيام بهذا الدور الحاسم وفصلهم عن تجربتهم القرآنية الحية ، ان كان من الداخل فهو خيانة قومية ، وان كان من الخارج فخيانة للانسانية وتقدمها .

إن دور العرب في فهم القرآن وتفهيمه ومسؤوليتهم في ذلك تأتي من كون القرآن عربي اللغة والخطاب . وأثر القرآن العالمي ودوره في توجيه الحضارة وربط الأمم بعضها ببعض يأتي من كونه انساني المبادىء والتعاليم . ولذلك كان من الضروري ليعود القرآن الى القيام بدوره في حياة العرب أولاً وفي العالم ثانياً فهم هاتين المسألتين :

١ - القرآن عربي الخطاب

ونقصد بذلك انه عربي في لغته وطريقة خطابه ، لا انه توجه في خطابه الى العرب وحدهم ، فقد وُصف القرآن بكونه عربياً في عدد كثير من الآيات :

(وكذلك أنزلناه قرآناً عربياً) (كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون) (انا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون) (وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً) .

ومعنى ذلك أن القرآن من حيث ألفاظه وتراكيبه ، ومن حيث أساليبه البيانية وطرائقه في التعبير عن المعاني يسلك مسلك العرب. ولذلك كان الاعتماد في فهمه على لغة العرب وعلى طريقتهم في أداء المعاني في كتاباتهم ومجازاتهم وإشاراتهم وقصصهم وأمثالهم والاعتماد في تفسيره انما يكون على الفهم العربي .

قال الإمام الشاطبي في كتاب الموافقات : « ان القرآن نزل بلسان العرب على الجملة فطلب فهمه إنما يكون من هذا الطريق خاصة لأن الله تعالى يقول : (إنا أنزلناه قرآناً عربياً) وقال (بلسان عربي مبين) . وقال (لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين) . فمن أراد تفهمه فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل الى تطلب فهمه من غير هذه الجهة » وقال أيضاً : « انه أنزل على معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها ». وقال « انه لا بد في فهم الشريعة

من اتباع معهود الأميين وهم العرب الذين نزل القرآن بلسانهم فإن كان للعرب في لسانهم عرف مستمر فلا يصح العدول عنه في فهم الشريعة »[1] .

ويتضمن عنصر اللغة هذا ألفاظ اللغة ومفرداتها، وللألفاظ في كل لغة مدلول ومفهوم يتصل بحياة أهلها ، ويعجبني قول أحد زعماء الهند في تحديد مفهوم (الحق) و (الصبر) عند العرب في تفسيره لسورة العصر حيث قال :

« واعلم أن الصبر عند العرب ليس من التذلل في شيء كما يصبر المضطهد العاجز بل هو أصل القوة والعزم وكثر في كلام العرب استعماله بهذا المعنى ، قال حاتم الطائي :

وغمرة موت ليس فيها هوادة ... يكون صدورَ المشرفي جسورُها

صبرنا له في نهكها[2] ومصابها ... بأسيافنا حتى يبوخ[3] سعيرها

وقال الأصبغ :

يا ابن الجحاجحة المداره[4] ... والصابرين على المكاره

---

(١) كتاب الموافقات في أصول الشريعة ج ٢ صفحة ٦٤ لأبي اسحاق ابراهيم بن موسى اللخمي الشاطبي الغرناطي المالكي المتوفى سنة ٧٩ هـ وهو كتاب عظيم الشان فيه كثير من الابتكار والابداع .

(٢) النهك مصدر نهكه أي أضناه وأرهقه .

(٣) باخت النار سكنت .

(٤) جمع جحجح وجحجاح وهو السيد ، والمداره جمع مدره وهو زعيم القوم وخطيبهم والمتكلم عنهم .

وهذا كثير وفي القرآن بيّن معنى الصبر حيث قال تعالى: «والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس» فذكر من مواطن الصبر الفقر والمرض والحرب وذلك أصول الشدائد وكذلك الصبر عند نزعات النفس على أذى الناس كما مر بك في قوله تعالى «ولمن صبر وغفر»[1].

وتشمل اللغة التراكيب وأنواع التعابير والصور وهذه يجب أن تفهم كذلك فهماً عربياً. فلكل لغة تراكيبها الخاصة ولكل أمة تشابيهها وصورها ومجازاتها ومقاصدها في كلامها وكثيراً ما أدى سوء فهم التعابير العربية والتشابيه والمجازات في عصور الفهم الأعجمي للقرآن إلى مذاهب منحرفة وتأويلات باطلة أخرجت القرآن عن نهجه القويم وفهمه العربي الصحيح. ذلك أن اللغة تخفي وراءها عادات أهلها والصور التي ألفوها والمفاهيم التي تصورها، ولذلك كان من وسائل فهم القرآن الضرورية كما قال الشاطبي «معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها حالة التنزيل» ويقول الشاطبي موضحاً ذلك ببعض الأمثلة «قوله تعالى: يخافون ربهم من فوقهم وقوله: أأمنتم من في السماء» وأشباه ذلك إنما جرى على معتادهم في اتخاذ الآلهة في الأرض وان كانوا مقرين بإلاهية الواحد الحق فجاءت الآيات بتعيين الفرق وتخصيصه تنبيهاً على نفي ما ادعوه في الأرض فلا يكون فيه دليل على اثبات جهة

---

(١) كتاب امعان في أقسام القرآن لعبد الحميد الفراهي.

البتة [1] » . ويستنتج من ذلك أن « كل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي فليس من علوم القرآن في شيء »[2] وحينما يناقش التفسير بالرأي ينتهي إلى القول بجوازه بشرط أن يكون جارياً على موافقة كلام العرب وموافقة الكتاب والسنة ويعقب الشاطبي ذلك بذكر أمثلة من التفسيرات الباطنية التي خرجت عن الفهم العربي للقرآن . ولذلك يجعل مصادر تفسير القرآن السنة وتفسير السلف الصالح ان لم توجه السنة « فانهم أعرف به من غيرهم وإلا فمطلق الفهم العربي لمن حصله يكفي فيما أعوز من ذلك » [3] .

وليست اللغة العربية من حيث مفرداتها وتراكيبها وحدها هي مصدر تفسير القرآن بل ان معرفة عادات العرب وبيئتهم التي كانوا يعيشون فيها ضرورية لفهم الكثير من آيات القرآن، فعاداتهم وأحكامهم قبل الاسلام منها ما أقره القرآن ومنها ما أبطله ونهى عنه .

قال الشاطبي : « ان العرب كان لها اعتناء بعلوم ذكرها الناس وكان لعقلائهم اعتناء بمكارم الأخلاق واتصاف بمحاسن شيم فصححت الشريعة منها ما هو صحيح وزادت عليه وأبطلت ما هو باطل » « وكان للعرب أحكام عندهم في

---

(١) ج ٣ ص ٣٥١ .
(٢) ج ٣ ص ٣٩١ .
(٣) ج ٣ ص ٣٦٩ .

الجاهلية أقرها الإسلام »[1] .

هذا وقد تضمن القرآن أمثلة توضح مبادئه العامة وشواهد تبين قواعده الكلية وبراهين تؤيد عقائده وقد روعي في هذه الأمثلة والشواهد والبراهين أن تكون مما يألفه العربي ويفهمه.

قال الشاطبي « لم يكتف بذلك حتى خوطبوا بدلائل التوحيد فيما يعرفون من سماء وأرض وجبال وسحاب ونبات وبدلائل الآخرة والنبوة كذلك ..

« وأخبروا بما أنعم الله عليهم مما هو لديهم وبين أيديهم وأخبروا عن نعيم الجنة وأصنافه بما هو معهود في تنعماتهم في الدنيا ... وبيّن من مأكولات الجنة ومشروباتها ما هو معلوم عندهم كالماء واللبن والخمر والعسل والنخيل والأعناب وسائر ما هو عندهم مألوف دون الجوز واللوز والتفاح والكمثرى وغير ذلك من فواكه الأرياف وبلاد العجم بل أجمل ذلك في لفظ الفاكهة .

« وقد كانوا عارفين بالحكمة وكان بينهم حكماء فأتاهم من الحكمة بما عجزوا عن مثله ولم يجادلهم إلا على طريقة ما يعرفون من الجدل »[2] .

ويرى الشاطبي ان كون القرآن معجزاً لا يخرجه عن

(١) ج ٢ ص ٧١ و ٧٢ .
(٢) ج ٢ ص ٧٨ و ٧٩.

كونه عربياً جارياً على أساليب كلام العرب ميسراً للفهم [1].
ان كل ما ذكرناه من الأمثال والشواهد والتشابيه والقصص وأساليب الكلام ليست إلا وسائل لمقاصد القرآن الأساسية وأهدافه كالإيمان بالله والحياة الآخرة ومسؤولية الإنسان وحسابه « وقد روعي في هذه الوسائل حال المخاطبين وكانوا عرباً ، وأما مقاصد القرآن وأهدافه الكبرى فهي عامة غير خاصة تعم جميع الأمم وتصلح لكل الناس .

ولكن هذه الأهداف لا بد من إفهامها للمخاطبين لينقلوها الى غيرهم ولهذا كان البدء بهم قال الله تعالى: « وانذرعشيرتك الاقربين » وقال «لتنذر أم القرى ومن حولها » وقد منّ الله عليهم بان اختار منهم رسوله الى الناس كافة في قوله: «لقد منّ الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته». (آل عمران) وقوله « هو الذي بعث في الاميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم » . (الجمعة)

والأميون هم العرب كما عليه أكثر المفسرين في ما قبل أهل الكتاب ولذلك جعل العرب حين خاطبهم القرآن الكريم مسؤولين عن حمل رسالته الى الناس ، فقد جاء في سورة الزخرف : « إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون » . ولا يستقيم المعنى إلا بأن يكون الخطاب موجهاً لهم ، وقد ورد في آية أخرى في السورة نفسها قوله تعالى « وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون » . وقد بين ابن كثير في تفسيره ان

(٢) ج ٣ ص ٣٤٦ .

المراد بقومه في الآية عند العرب ومن مجموع الآيتين تبدو مسؤولية العرب في التبلغ والتبليغ والتذكير وهذا التخصيص لا ينافي التعميم كما قال الشاطبي فان المبادىء والقواعد التي جاء بها القرآن عامة تصلح للبشر جميعاً ويستطيع كل من فهمها وتبلغها أن ينقلها الى غيره ويبلغها وينشرها وإن كان العرب في ذلك أثقل حملاً وأكثر مسؤولية وكذلك هم في تقصيرهم أشد وزراً .

٢ – القرآن انساني الرسالة :

وأما ما تضمنته رسالة القرآن من أهداف وغايات فهي إنسانية عامة . فالعقائد التي يدعو اليها ، والمبادىء الاخلاقية التي ينادي بها ، والنظم التشريعية التي يعلنها ، كلها إنسانية عامة . فالإله ليس إله قوم أو قبيلة أو شعب وإنما هو « رب العالمين » ، خالق السموات والارض . والرسول هو رسول الله الى الناس جميعاً لا الى جماعة أو قوم « قل يا أيها الناس إني رسول الله لكم جميعاً » ، « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ،« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » ، « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » . والناس كلهم عباد الله ، خلقهم ذكراً وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ، والانسان كما صوره القرآن ليسهو الإنسان العربي أو الأعجمي أو القرشي أو اليماني وإنما هو الانسان في خلقته الأولى ، الذي خلقه الله من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين، الذي

يخرج طفلاً ثم يكبر حتى يرد الى أرذل العمر ، هو الانسان الذي أنشأ له السمع والأبصار والأفئدة والذي حببت لـه شهوات الدنيـا « زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث » هو الانسان الذي ألهاه التكاثر وأحب المـال حباً جماً ، وحياته الواقعية هي التي وصفها القرآن بقوله : « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الاموال والاولاد » ، والمجتمع الانساني الذي وصفه القرآن في صورته الواقعية ليس هو المجتمع العربي في زمن معين وانما هو المجتمع الإنساني بوجه عام وإليك بعض هذه الصور الاجتماعية الواقعية: « ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت ايدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون » . (الروم)

« فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا ». (النمل)

وكم أهلكنا من قريـة بطرت معيشتها فتلك مساكنهم لم تسكن من بعدهم الا قليلاً وكنا نحن الوارثين » .(القصص).

« كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقـام كريم ونعمة كانوا فيهـا فاكهين كذلك وأورثناها قوماً آخرين فما بكت عليهم السماء والارض وما كانوا منظرين ». (الدخان).

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيما كنتم قالوا كنا مستضعفين في الارض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيهـا فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً . إلا

المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلةً ولا يهتدون سبيلا » . (النساء)

« فكأي من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية على عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد أفلم يسيروا في الارض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فانها لا تعمى الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور » (الحج)

« وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » . (الإسراء)

وكذلك صورة المجتمع المثالي الذي يرسمه القرآن انسانية عامة :

« ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » . (آل عمران).

« الذين إن مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ».

وان النظام الأخلاقي والتشريعي الذي تضمنه القرآن قد احتوى المبادىء العامة التي تختلف من شعب الى شعب كالشورى في الحكم (وأمرهم شورى بينهم) واداء الأمانة واقامة العدل ز ان الله يأمركم أن تؤدوا الامانات الى اهلها واذا حكمتم بين الناس ان تحكموا بالعدل) ومبدأ التعايش والتمارف والتعاون :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » .

« وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان » .

ومبدأ تعايش الأديان وعدم الاكراه في العقيدة .

« لا اكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي » .

« ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً » .

« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم ان الله يحب المقسطين ». (الممتحنة) .

وقد عرض القرآن المبادىء العامة للسلوك في شتى نواحي الحياة وهي كثيرة جداً كقوله :

« ولا تنازعوا فتفشلوا [1] » .

« ولا تلقوا بأيديكم الى التهلكة » .

« ولكم في القصاص حياة » .

« ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط».

---

(١) الفشل : الضعف .

« ولا تمش في الارض مرحاً » .

« ولا تزر وازرة وزر أخرى » « وأن ليس للانسان إلا ما سعى » .

« وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل مـا عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين » .

وإن مبادىء إقامة العدل ومنع الظلم واتباع الحق وفعل الخير والتعاون والاحسان وغيرها منثورة فيالقرآن، معروضة في صورتها العامة ومفهومها الانساني الشامل .

وتعرض القرآن لجميع قيم الحياة وحدد موقفه منها وهي القيم التي يواجهها الناس في كل العصور وجميع المجتمعات البشرية ، وتقيم عليها المذاهب الفلسفية والخلقية بناءها . ومن أمثلة ذلك ما ورد في هذه الآية التي جمعت أهم القيم ذاتالتأثير في الحياة وهي القرابة والنسب والمال والتجـارة والمسكن والارض مع بيان موقعها من المثل الأعلى المتجـلي في حب الله والجهاد في سبيله : « قل ان كان آباؤكم وأبنـاؤكم واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجـارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره » .

لقد أثار القرآن أهم مشكلات الإنسان بل قضاياهالكبرى وفي مقدمتها المسؤولية ومصير الحياة « أيحسب الانسان أن

يترك سدى » (القيامة) « أفلا يعلم اذا بعثر مـا في القبور وحصل مـا في الصدور » (العاديات) « أيحسب الانسان ان لن نجمع عظامه . بلى قادرين على أن نسوي بنانه . بل يريد الانسان ليفجر أمامه . يسأل أيان يوم القيامة » (القيامة) .

انها قضية الإنسان الكبرى ، انه قلق المصير والتفكر في نهاية الحياة الذين أثارهما القرآن في النفس ومن وراءهما المسؤولية العظمى . لقد تجاوز القرآن حدود الأمور المحلية والزمنية ، حدود البيئة التي نزل فيها والعصر الذي ظهر فيـه وحلـّق فوقها حتى كشف آفـاق حياة الإنسان بل آفاق الوجود . وقلما تجد في القرآن أسماء أعلام لأناس أو لبلاد اللهم إلا ما يكون في القصص التاريخي . حتى ان الصورة التي أعطاهـا عن الكون والطبيعة وأجزائهـا ، وإن كانت صورة ليست غريبة عن العرب ، عامة غير خاصة . فلا ترى في القرآن كما في الأدب الجاهلي الصحراء والناقة حيثما توجهت ، بل قلما تجد فيها هاتين الصورتين وانك لترى صورة البحر والفلك مواخر فيه اكثر منها :

« وهو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف وجاءهم الموج من كل مكان » « وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون » .

« ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام ان يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره » « أو كظلمات في بحر لجي يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها » .

ثم استعمل وتخيل هذه الصورة الكثيفة الجامعة :

« ان في خلق السموات والارض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل من السماء من ماء فأحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض ، لآيات لقوم يعقلون » .

هذه هي الطبيعة العامة التي نجدها في كل مكان في شمسها وقمرها ، وليلها ونهارها ، وبرها وبحرها ، ونباتها وثمارها ، وإنسانها وحيوانها .

إن غاية القرآن ، الذي يمثل آخر الرسالات ، إيقاظ ضمير الإنسان وربطه بخالقه وإشعاره بمسؤوليته وتحريره من الجزئيات ليسير في مبادىء واتجاهات ، وإقامة نظام لحياته وسلوكه يستقيم عليه أمره تستقر فيه العدالة وتتأمن الحرية ويتعاون البشر على اختلاف أجناسهم وأقوامهم لقد أشعر القرآن العرب بانسانيتهم ، ليشعروا هم غيرهم بها وجعل الرابطة بينهم أولاً ثم بين الناس جميعاً هي الرابطة الإنسانية ، لا رابطة النسب والعصبية والدم ولا رابطة المال .

ونقلهم من إطـار الصحراء والقبيلة الى إطار الكون الإنسانية ومن مظاهر حياتهم الى أغوار إنسانيتهم وإلى آفاق الوجود الرحبة الواسعة وبذلك استطاعوا ان يطلوا على الانسانية جميعاً من هذه الذرى العالية .

وان هذا القرآن الذي تضمن نظرة شاملة للحياة والوجود مبنية على الاتصال بخالق أبدي منه البداية وإليه المرجع والمآل وعلى مسؤولية الانسان عن عمله ، واشتمل على مبادىء أخلاقية ونظام تشريعي مبني على المساواة والعدالة . ان هـذا القرآن الذي تضمن هذه الدعوة الانسانية لم يبـدأ بالعرب لينتهي عندهم أو ليقيـم تشريعاً على أساس التمييز العنصري ، وهو الذي دعا الى المساواة بين البشر قبائل وشعوباً . ولكنه ابتدأ بهم ليحملهم أمانة ثقيـلة واختارهم الله لتبليغ رسالة عامة للبشر وليجعل منهم أمة معلمة مرشدة تقود الناس الى الحق وتهديهم الى الخير وتدعوهم الى هذا الصعيد الانساني المشترك . لقد كان الشرف العظيم الذي أناله الله العرب ان يكون الرسول الانساني العظيم منهم ، وأن يحملوا الرسالة التي انتهت عندها الرسالات، وان تكون لغتهم العربية لغة هذه الرسالة الانسانية حتى أصبح بين **القرآن والأمة العربية ولغة العرب** صلة لا تنفصم ورابطة لا تنحل هي الصلة بين **رسالة انسانية وأمـة مبلغة ولغة معبرة** . وان اهمال ما للعرب من موضع خاص في بناء الاسلام ، في فهم كتابه وتنفيـذ مبادئه ، وما للغتهم من

منزلة في فهم القرآن ، جهل بالاسلام وتاريخه وإضعاف للقاعدة التي يرتكز عليها . كما أن فصل العرب عن رسالة القرآن ومفاهيمه هو فصلهم عن تاريخهم وعن روحهم المتأصلة وينبوعهم الأصيل وتشويه وبتر لشخصيتهم ورجوع بهم عن مرحلة الرسالة الانسانية ، رجوع الى مراحل خلفوها وراءهم ولا تزال كثير من الأمم الراقية واقفة عندها . ولا يفعل هذا إلا جاهل مغرق في الجهل أو شعوبي حاقد .

وخلاصة القول إن القرآن في مبادئه ومثله يخاطب الناس جميعاً ويتوجه الى البشرية على مر العصور ، فهو كتاب الانسانية المعجز . وهو في الوقت نفسه كتاب العرب الخالد ، الذي يصلهم من جهة بالانسانية ومبادئها ويصلهم من جهة أخرى بالله الخالق الحكيم الذي « أنزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » ، فالقرآن إلهي في مصدره ، إنساني في مبادئه ورسالته ، عربي في خطابه وتعبيره .

النظم القرآني

تركيب الآية والجملة في القرآن الكريم

يُعنى الباحثون في الدراسات اللغوية في العصر الحديث بطرائق تركيب الكلام في كل لغة ، وتطور هذه الطرائق خلال عصورها المتعاقبة ، فيدرسون أساليب اللغة في ربط أجزاء الجملة ، وربط الجمل بعضها ببعض ، والصلة بينها وبين ما يقابلها من الدلالات والمفاهيم ، وارتباط هذه المفاهيم في أذهان أهل اللغة ، وهو ما يطلق عليه علماء فقه اللغة الفرنسيون لفظ Syntaxe ، ويقابلها في العربية نظم الكلام . وقد استعملها أسلافنا في مثل هذا الموضع للنثر كما استعملوها للشعر . وهذه المباحث موزعة في العربية بين علم النحو والمعاني ؛ فبحث تقديم الخبر على المبتدأ وبحث الجمل الشرطية والموصولة (صلة الموصول) ومواطن استعمال صيغة المضارع للماضي والماضي للمستقبل من أبحاث النحو تدخل في هذا الباب ، وبحث التقديم والتأخير في علم المعاني والإطناب

والإيجـــاز وأساليبها والقصر وضروب استعمال الاستفهام لأغراض متنوعة ، ومواطن الحذف والذكر وغير هـــذه من الأبحاث تدخل كذلك في باب نظم الكلام . وقد عني النقاد وأهل الفن في هذا العصر كذلك بنظم الكـــلام وأساليب تركيبه ، وكان هدفهم من هذه العناية تلمس الجمـال الأدبي في تلك الأساليب وفتشوا عن التراكيب التي تحقق لهم حلاوة النغمة وجمال الجرس أو المقابلة بين أصوات الحروف والمدود في تأليفها ، والموضوع الذي تدل عليه وتعبر عنه بحيث يقابل الجرس القوي والنغمة الشديدة شـــدة الصورة أو الفكرة ، والنغمة الناعمة المنسابة والجرس الهادىء، والمشهد الحلو الجميل، والصورة المحببة، والفكرة العذبة ، والتأمل الهادىء العميق .

ولا يزال مجال البحث في نظم الكلام وتركيبه في اللغـة العربية نظرياً ، واعتباره في النصوص الأدبية خلال العصور رحباً واسعاً لقلة من مالوا إليه وانصرفوا إلى العناية به. وقد جذبني هذا الاعتبار في اثناء دراستي وتدريسي للتفسير الأدبي لكتاب الله العظيم ، وكنت ألاحظها وأقف عندها في قراءتي وتأملي لآياته. وقد ضمنت كتابي هذا بعض هذه الملاحظات في معرض شرح بعض السور والآيات التي شرحتها فيـــه ، وقد رأيت من المفيد جداً سواء في الدراسات اللغويـــة أم في الدراسات القرآنية ، إفراد هذا الموضوع بالبحث والانطلاق

بعد ذلك للتوسع فيه توسع تعمق بالنسبة الى القرآن الكريم ، وتوسع امتداد الى نصوص العربية في مختلف عصورها بعد ذلك . وليسمح لي القارىء أن ألقي بين يديه بداية مختصرة ونماذج يقاس عليها ويضاف إليها .

١ – الجملة والآية :

الجملة هي الوحدة الأساسية للكلام عند النحاة . اما الآية فهي الوحدة التي يتألف منها النظم القرآني ولذلك فهي شيء آخر مختلف عن الجملة لأنها ليست وحدة معنوية أو نحوية وإنما هي الوحدة الفنية أو اللبنة التي يتألف من أمثالها صرح هذه المعجزة البيانية الإلهية التي هي القرآن .

ولهذا فقد تكون الآية جملة تامة وقد تكون جزءاً من جملة أي إن الجملة تتألف من عدة آيات وقد تشتمل الآية الواحدة على جمل متعددة .

الأصل أن الآية وحدة ترتيلية أي أن القارىء يقف عند فواصلها إلا في حالات قليلة محدودة لا يجوز فيها الوقف لإخلاله بالمعنى كقوله تعالى « فويل للمصلين .. الذين هم عن صلاتهم ساهون » أو لأن الوصل أحسن وأفضل ، ويقف القارىء في آخر الآية ولو كان الكلام متصلاً والمعنى متسلسلاً إذا لم ينشأ عن هذا الوقف تغيير في المعنى ، وهكذا تكون

الآيات فقرات من الكلام يرتلها القارىء ويستريح بعدها قليلاً، ثم يتابع التلاوة ويتصل المعنى في ذهنه وفي ذهن السامع .

(أ) فمن أمثلة الجملة التي تتألف من آيات النماذج التالية :

« فأما من أعطى واتقى ● وصدق بالحسنى ● فسنيسره لليسرى » ثلاث آيات في جملة واحدة .

« وأما من بخل واستغنى ● وكذب بالحسنى ● فسنيسره للعسرى » ثلاث ايات في جملة واحدة .

« إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون ● والذين هم بآيات ربهم يؤمنون ● والذين هم بربهم لا يشركون ● والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون ● أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون » (المؤمنون ٥٧) . وهي تتألف كما ترى من خمس آيات والمبتدأ في الآية الأولى والخبر في الخامسة .

فالآية هنا جزء من جملة ولا يتم المعنى إلا في عدة آيات، وإن كان القارىء يقف في آخر كل آية وقفة استراحة أو وقفة ترتيل لا وقفة انتهاء المعنى .

(ب) وقد تكون الآية جملة تامة مستقلة كقوله تعالى : وربك فكبّر وثيابك فطهّر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » .

وكقوله تعالى : « وبنينا فوقكم سبعاً شداداً ، وجعلنا

سراجاً وهّاجا ، وأنزلنا من المعصرات مـــاء ثجاجا » وإن كانت هذه الجمل أو الآيات تتتابـع وتتعاطف .

(حـ) وقد تتألف الآية الواحدة من عدة جمل متعاطفة أو متداخلة بحيث تؤلف تركيباً بنائياً لا تقبل أجزاؤه الانفكاك ، وستأتي نماذج من هذا النوع فيخلال الكلام على الآيات الطويلة ، ومن هذا النوع قوله تعالى :

« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليم خبير » (الحجرات ١٣) .

وقوله « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئـك هم المفلحون » (آل عمران ١٠٤) وبعض الآيات طويلة جداً وقد تجاوزت عشرين جملة في آية الدين في آخر سورة البقرة عدا الجمل الفرعية التي تضمنتها .

طبيعة الآية وخصائصها :

ومما تقدم يتبين أن تقسيم الكلام القرآني الى آيات هو غير تقسيم الكلام الى جمل ، فالآية هي جزء من الكلام يستقل من حيث الترتيل لا من حيث المعنى فهي وحدة ترتيلية فنيـة . وهي تقابل الشطر أو البيت في الشعر ، مع أن القرآن ليس بشعر ، ولا يقابلها أي شيء في النثر . ولا علاقة لها بالسجع

والكلام المسجوع كما سيتبين معنا في الكلام عن نغمة الكلام في القرآن وجمال الترتيل والموسيقى . ويجدر بنا لنعرف تنوع موسيقى القرآن ونغمتـــه بتنوع الأفكار والمعاني أن ندرس تركيب الآية وأنواعها من حيث التركيب .

تركيب الآيات :

قد تكون الآية كلمة واحدة وأكثر ما تكون كذلك في أوائل بعض السور للإثارة ولفت النظر والمباغتة ، وذلك مثل قوله (الحاقة) و(القارعة) (والطور) . وقد تتألف من كلمتين كالآيات الثلاث من سورة الطور هذه (وكتاب مسطور . في رق منشور . والبيت المعمور. والسقف المرفوع. والبحر المسجور) وكذلك هذه السورة الأخرى التي تبتدىء بكلمة واحدة ثم تتتابع السورة كلمتين كلمتين ثم ثلاث كلمات ثم أربعاً ثم خمساً وهي سورة الرحمن :

« الرحمن . علم القرآن . خلق الإنسان . علمه البيان. الشمس والقمر بحسبان . والنجم والشجر يسجدان . والسماء رفعهـــا ووضع الميزان . ألاّ تطغَوا في الميزان . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان . »

وتركيب الآية القرآنية مرتبط بتركيب الجمل ولذلك كان من الضروري دراسة الجملة القرآنية وأنواعها من حيث التركيب والتأليف وهو ما سنفعله في بحثنا هذا :

في القرآن الكريم أنواع كثـيرة من التراكيب تتدرج من الجملة البسيطة القصيرة التي تقتصر على أبسط عناصرها الى الجملة المركبةالطويلة المؤلفة من عناصر متعددة بينها ترابطوتشابك، ونقدم نماذج من هذه الانواع فيما يلي :

١ – الجملة البسيطة القصيرة :

ومن هذا النوع قوله تعالى في سورة النجم : « وأنه هو أضحك وأبكى . وأنه هو أمات وأحيا . وأنه خلق الزوجين الذكر والانثي . من نطفة إذا تمنى . وأنعليه النشأةالأخرى. وأنه هو أغنى وأقنى . وأنه هو رب الشعرى . وأنه أهلك عاداً الأولى . وثمود فما أبقى » .

وكذلك قوله تعالى في سورة الشعراء :

« واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيـــه وقومه ما تعبدون . قالوا نعبد أصنـــاماً فنظل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون . أو ينفعونكم أو يضرون . قــالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون. قال أفرأيتم ما كنتمتعبدون . أنتم وآباؤكم الأقدمون . فانهم عدوّ لي إلا ربّ العـــالمين . الذي خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقين . وإذا مرضت فهو يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدين .. » .

فالمتأمل لهذه الآيات يجـــد أنها مؤلفة من جمل قصيرة

مقتصرة على عناصرها الاساسية من الفعل والفاعل والمفعول به أو المجرور من غير تعدد هذه العناصر ، مع مراعاة التناسق وجمال النغمة .

٢ – الجملة البسيطة الطويلة :

ويتألف هذا النوع من الجمل من جمل قصيرة بسيطة متصلة مرتبط بعضها ببعض بالعطف أو غيره ، كأن تصل بينها لام التعليل ، أو تكون الثانية نعتاً للسابقة أو لجزء منها ، وهذه نماذج من هذا النوع :

قال تعالى : « ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه / إني لكم نذير مبين . أن لا تعبدوا إلا الله / إني أخاف عليكم عذاب يوم أليم . فقال الملأ الذين كفروا من قومه / ما نراك إلا بشراً مثلنا / وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي / وما نرى لكم علينا من فضل / بل نظنكم كاذبين . » (سورة هود) .

هذه آيات ثلاث كل آية منها تتألف من عدة جمل قصيرة بسيطة يتصل بعضها ببعض فيتألف منها جملة طويلة ، ولكنها بسيطة التركيب غير متداخلة العناصر . ومثلها قوله تعالى في السورة نفسها :

« ويصنَع الفلك | وكلما مر عليه ملأ من قومه سخروا منه / قال إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون » .

وفي سورة فصلت : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا

اليه / وفي آذاننا وقر / ومن بيننا وبينك حجاب / فاعمل إنا عاملون » .

ومثلها قوله تعالى في سورة النحل : « وهو الذي سخر البحر / لتأكلوا منه لحماً طرياً / وتستخرجوا منه حلية تلبسونها / وترى الفلك مواخر فيه / ولتبتغوا من فضله / ولعلكم تشكرون » .

وهذا النوع من الآيات التي تتألف كل آية منها من جملة طويلة ولكنها ذات فقرات قصيرة ، أو بتعبير آخر ينشأ طولها من اتصال جمل قصيرة بسيطة ، إن هذا النوع كثير في القرآن وله نغمته الخاصة وطابعه الخاص ، وهذه أيضاً نماذج من هذا النوع نفسه :

« أيودّ أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب / تجري من تحتها الأنهار / له فيها من كل الثمرات/ وأصابه الكبر / وله ذرية ضعفاء / فأصابها إعصار / فيه نار/ فاحترقت/ كذلك يبين الله لكم الآيات / لعلكم تتفكرون » (البقرة ٢٦٦).

« الله نور السماوات والأرض / مثل نوره كمشكاة فيها مصباح / المصباح في زجاجة / الزجاجة كأنها كوكب دري / يوقد من شجرة مباركة / زيتونة لا شرقية ولا غربية / يكاد زيتها يضيء / ولو لم تمسسه نار / نور على نور/ يهدي الله لنوره من يشاء / ويضرب الله الأمثال للناس / والله بكل شيء عليم.

٣ – الجملة الطويلة المسلسلة :

بعض الآيات القرآنية تتألف من جمل مترابطة مسلسلة تتصل أجزاؤها وجملها الصغيرة بعضها ببعض اتصالاً وثيقاً ، فلا يمكنك أن تقطعها إلى جمل منفصلة مستقلة، والترابط بينها أشد من مجرد العطف ، وليس هو مجرد التصاق وتعاقب ، وذلك كآية الدين في آخر سورة البقرة وهي قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ، ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله ، فليكتب ، وليملل الذي عليه الحق ، وليتق الله ربه ولا يبخس منه شيئاً ، فإن كان الذي عليه الحق سفيهاً أو ضعيفاً، أو لا يستطيع أن يمل هو فليملل وليه بالعدل ، واستشهدوا شهيدين من رجالكم ، فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء .. » (سورة البقرة) .

وتستمر الآية هكذا متسلسلة متصلة حتى تبلغ صفحة كاملة، أو خمسة عشر سطراً ، ويلاحظ فيها اتصال المعاني من غير تشابك أو تداخل بين عناصر الجمل ، ومثلها قوله تعالى في سورة الحج : « يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ، ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ، ثم نخرجكم طفلا ، ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من

يتوفى ، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعدعلم شيئاً . وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها المـــاء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج » .

فهذه آية واحدة وفكرة واحدة متسلسلة المعاني وتنتهي بشاهد أو مثل ، وكذلك تركيبها ونظم الكلام فيهـا فهو يشتمل على النداء والشرط والتعليل والعطف .

٤ – الجملة الطويلة المركبة :

وهي تختلف عن النوع السابق بأنه لا يمكن تقسيمها إلى فقر منفصلة لأنها متشابكة العناصر لا ينفصل أولهـــا عن آخرها ، ولا يفهم معناها إلا إذا قرنت كلها جملة واحدة فقد يكون المبتدأ في اولها والخبر في آخرها أو العكس مع تعدد العناصر المعطوف بعضها على بعض كقوله تعالى :

« إن في خلق السموات والأرض ، واختلاف الليل والنهار ، والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس ، وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون . » سورة البقرة .

فقد جاء الخبر المقدم في أول الآية والمبتدأ في آخرهـا ، وبينهما كلام طويل تضمن عناصر متعددة : خلق السموات والأرض ، اختلاف الليل والنهار ، الفلك التي تجري في البحر .

وهذه العناصر نفسها يتألف كل منها من مضاف ومضاف إليه ، والمضاف إليه نفسه متعدد أيضاً أو يتألف من اسم موصول مع جملة هي صلته تعطف عليها جمل أخرى .

ومن هذا النوع جمل أو آيات تتألف من شرط وجوابه وتتعدد فيها العناصر كذلك كقوله تعالى:

« قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ، أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره ، والله لا يهدي القوم الفاسقين » (التوبة) ، فهذه الآية تتألف من جملة طويلة مذيلة بجملة كما يلي :

١ – جملة قل مع مقول القول المذيلة في آخرها بجملة والله لا يهدي القوم الفاسقين .

٢ – مقول القول يتألف من جملة شرطية .

٣ – الجملة الشرطية يتألف فيها الشرط من جملة كان واسمها وخبرها .

٤ – اسم كان (المسند إليه) يتألف من ثمانية عناصر أو أسماء معطوف بعضها على بعض ، خمسة منها مفردة وثلاثة موصوفة بجمل .

٥ – خبر كان اسم تفضيل متبوع بثلاثة أسماء : أحب إليكم من ...

٦ – جواب الشرط (فتربصوا حتى يأتي الله بأمره) يتألف من جملتين .

٧ – وأخيراً جملة تذييلية منفصلة مناسبة لفكرة الجملة المذيلة .

ومن نماذج هذا النوع من الآيات ما اشتمل على اعتراض أو جملة اعتراضية قد يقصر كقوله تعالى :

« وإذا بدلنا آية مكان آية – والله أعلم بما ينزل – قالوا إنما أنت مفتر بل أكثرهم لا يعلمون » .

وقد يطول كثيراً حتى لا يكاد القارىء يفهم جملة المعنى إلا بعد التأمل المتمهل وقد يكون ذلك في عدة آيات تتألف منها جملة واحدة وفكرة واحدة ، تتخللها جمل اعتراضية تطول أيضاً، وإليك هذا النموذج النادر في قوله تعالى والكلام عن بني اسرائيل :

فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف ، بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ● وبكفرهم وقولهم على مريم بهتاناً عظيما ● وقولهم إنا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله – وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم، وإن الذين اختلفوا فيه لفي

شك منه ما لهم به من علم إلا اتباع الظن ومـــا قتلوه يقينا ● بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزاً حكيما ● وإن من أهل الكتاب إلا ليؤمنن به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا - ● فبظلم من الذين هادوا حرمنـــا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا ● وأخذهم الربا وقد نُهوا عنـــه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذاباً أليما ● (النساء ١٥٦)

وأصل الكلام : حرمنا على الذين هادوا (اليهود)طيبات أحلت لهم بسبب نقضهم الميثاق وكفرهم... وقتلهم الأنبياء.. وقولهم ... وكفرهم وقولهم على مريم ... وقولهم إنا قتلنا المسيح - وهنا يأتي كلام معترض طويل في ثلاث آيات «وبظلمهم وصدهم عن سبيل الله وأخذهم الربا وأكلهم أموال الناس».. وسنعود الى الكلام عن هـــذا النوع الفريد الذي يلفت نظر الباحث اللغوي ويسترعي اهتمامه ويثير تطلعه .

ويتصل بموضوع أنواع الجمل وطرائق تركيب الكلام الذي تتألف منه الآيات القرآنيةموضوع الترتيب، أي ترتيبعناصر الكلام وأجزاء الجملة تقديماً وتأخيراً ، وموضوع طريقة صوغ الكلام وتركيبه في القرآن الكريم، وسنتناول هذين الموضوعين بايراد بعض الملاحظات بإيجاز .

الترتيب :

لقد بحث علمـــاء البلاغه في علم المعاني موضوع التقديم

والتأخير والأسباب الدافعة الى ذلك سواء أكانت معنوية، أي لاعتبارات تعود الى المعنى كالتشويق أو العناية والإشادة، أو القصر والحصر، أم فنية تعود الى جمال الصياغة وحسن الجرس وحلاوة النغم، وإليك نماذج من الآيات التي حصل فيها تقديم وتأخير يخالف الترتيب النحوي المعهود، ولاحظ ما يكسب ذلك الكلام من ناحية المعنى أو من ناحية جمال اللفظ :

« قل أفغير الله تأمرونّي أعبد أيها الجاهلون » والأصل أن تقول : قل أيها الجاهلون أتأمرونني أن أعبد غير الله.

« ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية » وقد تأخر الفاعل في الجملة الى آخرها .

« ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه » وقد أخر الفعل الى آخر الجملة، وكثيراً ما يكسب الترتيب الكلام حلاوة في النغم بالاضافة الى ما يفيده من معان أخرى، كالاهتمام أو المفاجأة أو التشويق، ويظهر ذلك واضحاً في الآيات التالية :

« واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا » وهو أوقع وأقوى تأثيراً في نفس السامع من قولنا فإذا أبصار الذين كفروا شاخصة، وكذلك قوله تعالى:

« وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » بدلاً من ناظرة إلى ربها .

وقوله : « خـــذوه فغلوه ثم الجحيم صلوه » بدلاً من ثم صلوه الجحيم .

وقوله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » .

الصياغة والتركيب :

إن المعنى الواحد يمكن أن يؤدي في اللغات الراقية في صيغ متعددة ويمكن أن يؤلف الكلام في صور شتى تختلف في تراكيبها وأساليب تأليفها وكثيراً ما يعدل عن الطريق المألوفة في التركيب المعتاد والتأليف المعهود لأهداف فنيــة ومقاصد بلاغية ، وهذه نماذج من آيات الكتاب الكريم يلاحظ فيهـا جمال التركيب غير المألوف : « وإذ يرفع إبراهيم القواعد من من البيت وإسماعيل ».

والتركيب النحوي العادي يقتضي أن تقول : وإذ يرفع ابراهيم واسماعيل قواعد البيت فجاء في الآية (القواعد من البيت) بدلاً من قواعـد البيت وفرق بين ابراهيم واسماعيل لينتهي الكلام بلفظ اسماعيل ، وتتوازن أجزاء الكلام من حيث الجرس والنغمة .

وكذلك قوله تعالى « لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » فصيغ الجزء الاول من الكلام (الخوف) صياغـة اسمية ، والجزء الثاني (الحزن) صياغة فعلية، ولو صيغ كلاهما صياغة اسمية (لا حزن عليهم ولا خوف) أو صياغة فعلية ، (لا يخافون ولا يحزنون) لما كان للكلام هذا الوقع الجميل .

واستمع الى قوله تعالى :

« ما كانوا يستطيعون السمع وما كانوا يبصرون » .

وقوله « كانت أعينهم في غطاء عن ذكري وكانوا لا يستطيعون سمعاً » .

فكلا الآيتين تفيد نفي السمع والإبصار عنهم ولكن المعنى صيغ في صياغة أجمل وأوقع من قولنا (لا يسمعون ولا يبصرون) مع تنوع الصياغة في الآيتين . ومن التراكيب التي تلفت النظر في القرآن الكريم تكرار أول الآية حينما يطول الكلام ، كقوله تعالى « إني رأيت أحد عشر كوكباً والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » .

ولو أنك قرأت الآية من غير هذا التكرار للفظ (رأيتهم) لشعرت بالفرق الكبير بين جمال نغمة الآية وقوة تعبيرها عن المعنى وضعف الجملة بعد الحذف .

ومثلها قوله تعالى :

« إن ربك للذين عملوا السوء بجهالة ثم تابوا من بعد ذلك وأصلحوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم » وقوله « لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ».

وقد عني علماء البلاغة في علم المعاني بالبحث عن كثير من

طرائق تأليف الكلام وتركيبه ، فبحثوا في أساليب الإطناب وهو تفصيل الكلام ، وأساليب الإيجاز،وفي التقديم والتأخير، ولكننا نرى أن المجال لا يزال واسعاً أمـام من يريد البحث في أساليب النظم القرآني بحثا مستقلا .

فوائد البحث في أنواع الجمل وأساليب التركيب في الآيات القرآنية :

ان ما قدمناه من الكلام في تصنيف الآيات والجمل القرآنية وما يتبع ذلك من البحث في الترتيب والتركيب له فوائد عديدة. (فمنها) فائدة تعليمية وذلك أنه يمكن أن يتدرج المتعلم للغة العربية وللقرآن نفسه من الجمل القصيرة البسيطة ثم يرتقي الى الآيات المؤلفة من جمل طويلة بسيطة التركيب متوالية الفقرات ثم ينتهي بالآيات الطويلة المركبة . (ومنها) ما تقدمه هذه الدراسة من كسب لفقه اللغة الذي تدرس فيه تراكيب الكلام واختلافها باختلاف العصور وعقليات الأمم . ولا بد ههنا أن تلفت نظر الباحث ظاهرة غريبـــة ذلك أن الجمل الطويلة المركبة في القرآن قد تطول حتى تبلغ أحيـانا مقدار صفحة من كتاب ، وتتركب أجزاؤها في تركيب مرصوص محكم مترابط لا يقبل الفصل ولا التقسيم ولا التجزئة ، لتعـبر عن فكرة متعددة الجوانب كثيرة العناصر ، بين جوانبهـا هذه صلات وبين عناصرها روابط . هذا النوع من الجمل لا نجد له نظيراً في نثر اللغة العربية قبل عصر القرآن بـل ولا في عصر

القرآن نفسه، فلا نجد مثله في رسائل النبي ﷺ ولا في رسائل الخلفاء والصحابة وخطبهم ولا في عصر بني أمية، ولا نكاد نجد أمثال هذه التراكيب إلا في عصور متأخرة من عصور العربية، وهي العصور التي ارتقى فيها الفكر وبلغ درجة عالية من القدرة على التركيب بين المفاهيم والعناصر، وهذه من خصائص القرآن المميزة التي تفسح المجال للتأمل والتفكير وتجعل القرآن نسيج وحده في تاريخ النثر العربي، وتجعله خارجاً عن مراحل التطور وعوامله.

وهناك أخيراً فائدة فنية لدراسة أنواع الجمل وأساليب التركيب وألوان الصيغ فهي منبع خصب للجمال الفني سواء فيما تقدمه من ألوان معنوية أم من موسيقى توارف الفكرة وتتعاون معها بتوافق وانسجام. ونحب أن نختم بحثنا هذا بعرض موجز للجانب الموسيقي من النظم القرآني.

النغمة والموسيقى:

يشعر قارىء القرآن شعوراً طبيعياً بدافع قوي يدفعه إلى ترتيله ترتيلاً صوتياً له نغماته في كل كلمة من كلماته بل في تتابع حروفه، وحلاوة النغمة في الكتاب العزيز تتخلل الآية في جميع أجزائها وحروفها، ولا تقتصر على الوقوف عند الفاصلة في آخر الآية التي تقابل السجع، وإليك بعض خصائص هذه الموسيقى القرآنية:

١ - فقد تكون ضرباً من الإثارة وأداة للتنبيه والمفاجأة، وخاصة في العهد المكي الأول حين كان العربي سادراً في غلوائه غير مستعد للاصغاء إلى الدعوة الجديدة ، ومن أمثلة ذلك مقدمة سورة الحاقة :

الحاقة . ما الحاقة ؟ وما أدراك ما الحاقة ؟

وكذلك : القارعة . ما القارعة ؟ وما أدراك ما القارعة؟

ثلاث موجات متعاقبة تكبر وتتسع متصاعدة في طولها ومدودها . وتتصف كل واحدة منها بالشدة والمد في وسطها ويتعدد ذلك ويتكاثر في الثانية والثالثة .

ويتناسب ذلك مع هول الموضوع الذي هو (يوم القيامة) ومع هذه الاستفهامات المتوالية المشوقة لمعرفة الجواب .

٢ - وقد تكون تصويراً صوتياً موازياً ومقارناً للتصوير التعبيري وذلك في مثل مقدمة سورة العاديات ، فهي وصف للخيل التي تعدو في غارة صباحية حتى تصل إلى هدفها ، فاستمع إلى هذه الفقرات المتقطعة تقطع مسير الخيل المتساوية في اجزائها :

« والعاديات ضبحاً . فالموريات قدحاً . فالمغيرات صبحاً . فأثرن به نقعاً . فوسطن به جمعاً » .

الآيات الثلاث الأولى قصيرة سريعة متساوية في الطول وفي الوزن والنغمة وتتألف كل واحدة منها من الكلمة الاولى

المشتملة على مدّين والثانية لا مد إلا في آخرها ، وفي كل منها تصوير لارتفاع الخيل ثم هبوطها واصطدامها بالأرض ، وتأتي الآيتان الأخيرتان لتصورا بانعدام المدّ فيهـا وتوالي الحركات سرعة جري الخيل وتتابع حركاتها حتى تصل الى هدفهـــا (فوسطن به جمعا) .

٣ – والمهم في النغمات القرآنيـــة تناسبها مع الموضوع والفكرة شدة وليناً وسرعة وبطأً .

فإذا كان الموضوع حديثاً عن يوم القيامة وهولها وتعاقب أحداثها قصرت الآيات وكثرت فيهـــا الحروف ذات الشدة والصليل وقلت المدود أو فقدت كقوله تعالى :

« فإذا بَرِق البصر . وخَسَف القمر . وجُمِـــع الشمس والقمر . يقول الإنسان يومئذ أين المفر ؟ » (سورة القيامة) .

وإذا كان الكلام دعـاء جاءت المدود التي تكسب النغمة هدوءاً وطولاً وتصور التأمل العميق ونـــداء المستغيث كقوله تعالى :

« ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذابَ النار . ربنا إنك من تدخل النار فقد أخذيته وما للظالمين من أنصار . ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للايمان أن آمنوا بربكم فآمنا ، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار . ربنا وآتنا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامـة إنك لا تخلف الميعاد » (آل عمران ١٩١) .

واستمع الى قول من استحق بعد الحساب دخول النار إذ يعبر عن حسرته ويتأوه :

« وأما من أوتي كتابـــه بشماله فيقول : يا ليتني لم أوت كتابيه . ولم أدر ما حسابيه . يا ليتها كانت القاضية . مـا أغنى عني ماليه . هلك عني سلطانيه » .

ثم انظر كيف تتغـير النغمة وتأتي حروف الواو لتصور دفعه الى جهنم دفعاً ثم كيف تطول الآية والنغمة في آخرهـا حين تلتف حوله سلسلة طويلة من سلاسل جهنم :

« خذوه فغلوه . ثم الجحيم صلّوه . ثم في سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه ». (الحاقة)

والأمثلة على ذلك كثيرة جداً .

٤ – تنوع نغمات الآيات طولاً ووزناً وفاصلة (قافية) :

فقد تتماثل وتتساوى الآيتان مثل قوله تعالى « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » .

وقد يكون التوازن مع اختلاف الفاصلة كقوله تعالى :

« آتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم».

وكقوله : « نمارق مصفوفة وزرابي مبثوثة » (الغاشية).

وقد تتوالى الآيات كموجات متساوية متتابعة كقوله تعالى :

« في سدر مخضود وطلح منضود وظل ممدود » .

وقوله : « إذا الشمس كوّرت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سيّرت . وإذا ... » (التكوير) .

وقد تتصاعد الموجات وتتسع وتطول في تتابعها كقوله تعالى :

« والضحى. والليل إذا سجى. ماودعك ربكوما قلى».

« الحاقة . ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة » .

وقد تتنوع الموجات طولاً وقصراً وتتفق فاصلةً (قافية) وتختلف فيتألف من مجموعها قطعة رابعة فاستمع الى قوله تعالى:

« والطور . وكتاب مسطور في رق منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إن عذاب ربك لواقع . ما له من دافع . يوم تمور السماء موراً . وتسير الجبال سيرا . فويل يومئذ للمكذبين ».

٥ — والنظم القرآني بالجملة نظم يبدو فيه الجمال الموسيقي أو حلاوة النغمة وليست القضية أبداً قضية نثر مسجوع ، إذ شتان بين السجع والموسيقى ، فموسيقى القرآن داخلية تتخلل الكلام كله ، وتنتظم جميع أجزائه ، كلماته وحروفه ، مع مراعاة التناسب بين نوع النغمة وصفاتها، والفكرة أوالموضوع أو المشهد الذي تعبر عنه الآيات . واقرأ إذا شئت لتشعر نفسك بهذه الموسيقى الداخلية أي جزء من الكتاب الكريم ، اقرأ اذا شئت هذه الآيات : « وكل إنسان ألزمناه طائره في

عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقـــاه منشوراً . إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا . من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها . ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » . (الإسراء) .

ولو قرأت حتى آيات التشريع والأحكام لوجدتها متصفة بهذه الخاصة الموسيقية ، ولعل جمال النغمة هو السبب في العدول في كثير من الآيات عن طرائق التركيب والتأليف المعتـادة الى صياغة خاصة في الكلام، ولو رجعت الى الآيات التي استشهدنا بها آنفاً في طرائق التركيب لوجدت صدق هذه الملاحظة .

ولعل الباحثين في اللغة والمشتغلين بالأدب وفنونه وأساليبه يتوسعون ويتعمقون كلّ في اختصاصه في دراسة النظم القرآني ليقدموا للأجيال القادمة ما يمكنهم من تذوق لغة القرآن وفنه، وما يجعل صلتهم بالعربية أعمق وشعورهم بجمالها أدق وأرهف، وليؤدوا لكتاب الإنسانية الخالد بعض حقه .

الفهرس

للمؤلف

نظام الإسلام — العقيدة والعبادة
نظام الإسلام — الاقتصاد
المجتمع الإسلامي المعاصر
الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية
نحو انسانية سعيدة
آراء ابن تيمية ومدى تدخل الدولة في الاقتصاد
فقه اللغة وخصائص العربية
فن القصص في كتاب البخلاء للجاحظ
عبقرية اللغة العربية
المشكلة الثقافية في العالم الاسلامي
جذور الأزمة في المجتمع الاسلامي
مزايا الثقافة الاسلامية
الأمة والعوامل المكونة لها
العقيدة في القرآن الكريم
ذاتية الاسلام أمام المذاهب والعقائد
نحو وعي اسلامي جديد